

مكتبة دار الكتب والوثائق بالبحر الأحمر

الدولة البرنظية في عصر پالو غوس

(١٢٦١ - ١٢٨٢)

ركنو اسحق عيسى

أستاذ العصور الوسطى المساعد
جامعة عين شمس - جامعة بنغازي



مطبعة دار الكتب ، بيروت - لبنان

الدولة البيزنطية
في عصر باليولوغوس

المحتويات

صفحة	مقدمة
٩	١٣ — الفصل الأول : بيزنطة تحت أقدام الصليبيين (١٢٠٤ — ١٢٦١)
٣٣	٣٣ — الفصل الثاني : باليولوغوس يسترد القسطنطينية
٤٣	٤٣ — الفصل الثالث : تحركات المغول في عصر باليولوغوس — بيزنطة ومصر المملوكية .
٦٩	٦٩ — الفصل الرابع : البيزنطيون وفرنجية اليونان في عصر باليولوغوس .
٩١	٩١ — الفصل الخامس : صقلية وبيزنطة في عصر باليولوغوس .
١٠٧	١٠٧ — الفصل السادس : باليولوغوس ومجمع ليون الثاني (١٢٧٤)
١١٧	١١٧ — الفصل السابع : نهاية قصة طويلة .
١٢٧	١٢٧ — الملاحق : أ — النص الكامل لمجمع ليون الثاني (باللاتينية) ب — جدول إبياني بأسرة باليولوغوس ج — جدول بأمراء الفرنجية في آخايا د — جدول بأدواق آثينا هـ — جدول بالمستعمرات التي خضعت للبندقية و — خرائط
١٣٨	المصادر والمراجع

Whether 'tis nobler in the mind to suffer
The slings and arrows of outrageous fortune,
Or to take arms against a sea of troubles,
And by opposing end them ? ——— To die, ——— to sleep,
No more; and by a sleep to say we end
The heart-ache, and the thousand natural shocks
That flesh is heir to, — 'tis consummation
Devoutly to be wished.

(Hamlet)

المَقَدِّمَةُ

أثارت شخصية ميخائيل الثامن باليولوجوس اهتمامي الشديد أثناء قيامي بدراسة وتدرّيس تاريخ الدولة البيزنطية في عصرها المتأخر . ولقد وجدته أشبه ما يكون بالربان على ظهر سفينة غارقة ؛ يقدم على درب المستحيل على أمل إنقاذ ما يمكن إنقاذه للبيزنطيين : لقد تسام مقاليد الأمور ، بعد مغامرات خطيرة ، لحكومة هزيلة أقامها الفارون من وجه الغزو الصليبي للقسطنطينية في المنفى في بلدة نيقيا بآسيا الصغرى . وكان عليه من هذا الموقع أن يواجه صنوفاً من التحدي القاسي ؛ من جانب الفرنجة وحلفائهم البنادقة الذين احتلوا العاصمة البيزنطية تحت شعار الصليب وبتأييد من البابوية ، ومن جانب فرسان الفرنجة الذين نهبوا البلقان وأقاموا لأنفسهم إمارات إقطاعية على حساب حقوق أصحابها الأصليين ، ثم من جانب نفر من بني جلدته الذين أقاموا بدورهم حكومات انفصالية في طرايزوند وإيروس .

ثم جاءت المصائب تترى في عهده متمثلة تارة في زخوف المغول المدمرة على الشرق الأوسط والأدنى ، وأخرى في المخططات العدائية من جانب ملوك صقلية من بيت الهوهنتشاوفن الألمان ، ومن بعدهم من جانب أمراء البيت المالئ الفرنسي من جماعة آلنجر . ومن وراء هؤلاء وأولئك كانت البابوية تحرك المؤامرات ضد بيزنطة بالعلانية .

وقد قبل يالولوغوس كل هذه التحديات الواحدة بعد الأخرى ، وأحيانا كان عليه أن يجابهها مجتمعة في آن واحد . ووسط هذه الصعاب كان عليه أيضا أن يدرك عن ظهره كيد السلاجقة الأتراك ، وغدر خانات الصرب والبلغار . ولما أن ضاقت الدنيا في وجهه تلفت إلى روما يعزف للفاتيكان على وتر حساس ويتوسل إلى البابا أن يتدخل ليجنبه وشعبه مكائد أبالسة الغرب اللاتيني . فطلب البابا الثمن وكان باهظاً وخطيراً ، وأذعن يالولوغوس وذهب ممثلوه إلى مجمع ليون الثاني سنة ١٢٧٤ وأعلنوا خضوع الكنيسة البيزنطية للسلطان البابوي ، وألقت الحكومة البيزنطية عن طريق سفرائها بقانون الإيمان الأرثوذكسي وبالكرامة البيزنطية جميعاً تحت أقدام كرادلة ليون . وفزع الرأي العام في بيزنطة واستمطره الخسارة والعامة كل اللعنة ، وتذكر له أهل بيته ، وتحفز الانفصاليون ليدمغوا يالولوغوس بالحرطقة !

ثم ما لبثت البابوية أن تنكرت للرجل ، وتحالفت مع أعداءه من أمراء الغرب وفرسان أنجاي الصليبيين ، بل إنها لم تنورع عن صب لعنة الحرمان على رأسه . وبات يالولوغوس يكتبوي بنار الغرب وخسة أمرائه وكرادلته ويتشفي الأهل به لما أصابه من غدر لان مع الرومان .

ورغم كل هذه المحن فإن يالولوغوس لم يلق السلاح ، بل إنه ظل يجاهد في بسالة نادرة حتى أنقذ بيزنطة من نسيج مخيف من المؤامرات التي كانت تحاك ضدها في أروقة الفاتيكان وفي صالونات باريس وأنجو ، وفي خيام المغول وفي دور السلاطين السلاجقة . ومن هذا الواقع وجدني أشبه يالولوغوس في مستهل كتابي بالبطل المأساوي هملت ، لأنه وبحق قد أصر على « حمل السلاح ضد بحور من الآلام والصعاب » .

على أنني لا أود من القارئ أن يقفز سريعاً ليستنتج أنني أؤمن بأن التاريخ من صنع بعض الأفراد ، فليس هذا قصدي ولا هو مذهبي . فلو أن ميخائيل يالولوغوس لم يولد ، لظهر من بين البيزنطيين من كان سوف يقوم بدور

ميخائيل في تجسيد آمال البيزنطيين الذين كانوا يرنون بأبصارهم من المنفى نحو تحقيق الحلم الغالي ألا وهو استرداد مدينة قسطنطين العظيمة وطررد الغاصبين ، فالبيطل ، أو « المخلص » إن شئت ، هو الذي يستبصر أحداث عصره ويحسد آمال ذويه ويتحرك معهم ، وإن كان أمامهم ، نحو الغايات النبيلة . لقد ارتفع يالولوجوس إلى مستوى تحديات زمانه ، فأصاب الكثير من النجاح ، ولئن كانت جهوده قد أثت بحصاد هش في نهاية العصر فليس هذا ذنبه ، لأن ما كان قد تبقي لبيزنطة من قدرة على الاستجابة لم يكن بحال ليقاس بحجم تلك التحديات . ولذا فإن هذا الامبراطور كان يحارب قضية خاسرة ، ولكنها كانت وستظل قضية نبيلة اسمها « الخلاص » . لقد شاخت بيزنطة في صدر شباب يالولوجوس في تلك الحقبة من أواخر القرن الثالث عشر ، فقارب عمرها ألف عام تقريباً ، وبانت الأصابع تشير إليها على أنها « رجل أوروبا المريض » . ومن هنا فإن المهمة التي أقدم عليها يالولوجوس في معالجة « المسألة البيزنطية » كانت مهمة قاسية ورهيبة ، ولكن الدرس الذي تقدمه من خلال هذا القائد هو درس الإصرار وعجاجة التحدي باستجابات تتجدد رغم كل الظروف .

ونود أن ننبه في النهاية إلى أن المعاناة التي كابدها بيزنطة ابتداء من سنة ١٢٠٤ كانت في الدرجة الأولى من صنع غرب أوروبا المسيحي . على أنه يجب أن يتحمل البيزنطيون أنفسهم نفس القدر من التبعة . لقد دمر الصليبيون معنويات بيزنطة وامتصوا دماء رجالها وسبوا خيرات أرضها وحرثها . أما البيزنطيون فقد تفتت قوة مقاومتهم وشلت فاعليتهم عندما تناحروا وتطاحنوا في حروب أهلية ، إلى حد أن ثلاثة من أمراءهم كانوا يتلقبون باللقب الامبراطوري في آن واحد ، ومن ثلاثة مواقع متعادية : في نيقيا وطرابزون وأيرروس . وضاع المال وهلك الرجال من فعل أبناء البيت الواحد ، فكان لا بد لهذا البيت أن ينهار على أهل البيت . لقد بلغ عجز الرؤية عند بعض البيزنطيين إلى حد استعداد الصليبيين تارة والبلغار أخرى والأتراك تالفة على الجالس على

عرش اليوسفور بقصد خلعه واغتصاب التاج . نعم لقد حقن بالبولوغوس
بيزنطة بجرعة من الدم الحديد مدت من عمرها مائتي عاما تقريبا ، ولكنها
كانت أعواما من الموت البطيء ، وكانت النهاية المحتومة واضحة في الأفق
لمن يريد أن يتبينها . ولم يكن عسيرا على السلطان محمد الفاتح في ٢٩ مايو
١٤٥٣ أن يدخل مدينة قسطنطين ويعلن زوال الامبراطورية الرومانية الشرقية
من الوجود وإلى الأبد .

لقد سقطت بيزنطة من الداخل ، ولم يكن للترك حتى مجرد شرف الإجهاز
عليها ، لقد كانت كالمخلوق الذي قد انتحر .

* * *

الفصل الأول

بيزنطة تحت أقدام الصليبيين

(١٢٠٤ - ١٢٦١ م)

« أيتها المدينة المدينة ، يا زهرة المدائن ، يا حديث المسكونة ونيع الارثوذكسية ، يا قلعة العلم ، وملاذ كل الخير ! لقد تجرعت الكأس حتى الثمالة ، واكتويت بنار أشد لظى من اللهب التي حطت بالمدائن الخمس » .
(نيكيتاس كونيئاتس)

سقطت بيزنطة في أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ م ، نتيجة لمؤامرة دبرها قادة الحملة وعلى رأسهم بلدوين كونت فلاندرز ، وبونيفاس ماركيز مونت فرات ، أو هنري داندولو دوج البندقية . وكانت البابوية قد باركت هذا الغزو الصليبي لإمبراطورية كربية على العقليّة اللاتينية ؛ ولذا فإننا نجد البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م) يشيد في رسائله إلى قادة الحملة بغزوهم للقسطنطينية ويعتبره فتحاً عظيماً ونصراً للبابوية نفسها على « امبراطورية منحرفة وكنيسة ضالة » . وبهذا حققت البابوية هدفاً خطط

له البايوات تبعاً منذ بداية القرن الحادي عشر . والواقع أنه منذ أن حدث الشقاق الأكبر بين الكنيستين سنة ١٠٥٤ م راح الكرسي الروماني يتوعد سيد البوسفور وأخبار أياصوفيا بالتهديد والوعيد ؛ لأنهم قد شقوا عصا الطاعة على أمير الكنيسة العالمية — البابا نفسه — ولأنهم قد تردوا في المهرطقة الواحدة وراء الأخرى . وهذا ادعاء كاذب لا تؤيده سجلات العصر الوسيط ^(١) .

وبعد نهب القسطنطينية من كل نفيس ، وبعد أن أجلس سكارى الفرنجة راقصة مبتذلة على عرش البطريركية ، جلسوا لتوزيع الغنائم . ومع أن أشياء كثيرة قد سرقت وأخفيت ، فقد أحرزوا غنائم قيمتها تعادل ٨٠٠,٠٠٠ جنيهاً من الذهب . وقد أضيف إلى هذا آيات الفن النادرة التي كانت في المدينة منذ عهد قسطنطين العظيم وخلفائه . ويعطينا نيكيتاس كونيئاتس ، وهو شاهد عيان ، قائمة بالآثار التي دمرها الصليبيون وصهروها لتحويلها إلى عملات ؛ والتي كان من بينها التمثال البرونزي للذئب وروميلوس وربموس ، وتمثال پارس مع التفاحة الذهبية ، وهيلين الطروادية ، والتمثال النحاسية التي أقامها اغسطى بعد واقعة أكتيوم . وتناول هذا الحرم الصليبي أيضاً آيات الفن المسيحي ، كما نبش رعايا الفرنجة قبور الأباطرة ومذابح الكنائس لنهب ما فيها من معدن نفيس . وعلى هذه الشاكلة القبيحة حقق الصليبيون « أعظم الفتوح » ، دونه مجدي القرنين وسلطان شرملا « ، كما تقرر المصادر الغربية ؛ في حين أن أهل بيزنطة باتوا يتوحدون مع نيكيتاس كونيئاتس على زهرة المدائن ^(٢) .

واختار الصليبيون فرنجياً من قادتهم هو بادوين من فلاندرز وتوجوه امبراطوراً على بيزنطة ، وقد خصص له ربع أراضي الدولة « دومينا » للتاج . أما عن البنادقة فقد حصلوا على نصف ما تبقى من الأرض ، ووزع الفائض

(١) أنظر كتاب « روما وبيزنطة » ، اسحق عبيد ، ص ٢١ - ٣٩ .
(٢) Nicoetas Choniates, Historia (Bonn ed.), p. 763.

على فرسان الحملة « إقطاعاً » من الامبراطور للأفصال ، وفق التقاليد الإقطاعية السائدة في الغرب اللاتيني . أما عن الماركيز بونيفاس دي مونت فرات فقد عرضت عليه بعض الأراضي في اسيا الصغرى ولكنه فضل أن يحصل على نصيبه في الجانب الأوربي فاستولى على سالونكا وأسس فيها مملكة ضمت الأراضي المتاخمة في مقدونيا وتساليا .

كانت الأراضي التي استحوذ عليها الامبراطور اللاتيني الأول لبيزنطة المنكسرة موزعة بين مقدونيا وشمال غربي اسيا الصغرى ، فشملت بذلك جانبي البسفور والدردنيل ، بالإضافة إلى بعض الجزر الهامة في بحر إيجه من بينها لسبوس وخيوس وساموس .

أما البنادقة ، الذين كانوا يهتمون في الدرجة الأولى بالمواني لممارسة نشاطهم التجاري ، فقد استولوا على ايروس ، أكارنانيا ، اثوليا ، دورازو ، راجوزة ، كورون ، مودون ، أيونيا ، كريت ، يوبويا ، اندروس ، فاكسوس ، جاليبولي ، رادستوس ، هراقلية ثم أدرنة .

وحتى العاصمة نفسها — القسطنطينية — قد مزقت ، وحصل الامبراطور على خمسة أثمانها ، وترك للبنادقة الباقي . ثم اغتصب عرش البطريركية البيزنطية أسقف من البندقية هو موريوسني ، الذي استبد برجال الدين البيزنطيين وحقر من طقوسهم ، فهرب غالبيتهم من ايروشيائهم يتلمسون العزاء عند حكومات المنفى في اسيا الصغرى وفي البلقان ، على أمل العودة . وكان من أول الفارين البطريرك نفسه يوحنا كاتايروس الذي لجأ إلى بلغارية واعتزل منصبه .

كانت الامبراطورية اللاتينية التي أقامها الفرنجة على الأرض البيزنطية المغتصبة تشكل خليطاً من أنظمة الإقطاع المنتشرة في الغرب الأوربي ، فكانت إقطاعات شبه مستقلة يحكمها أفصال يتبعون الامبراطور تبعية اسمية ، وقد وضح ذلك على وجه الخصوص في أواسط وجنوبي بلاد اليونان حيث كان

الأفصال الإقطاعيون قد أدوا بيمين الولاء والطاعة لا للامبراطور وإنما للماركيز بونيفاس دي مونت فرات الذي نصب نفسه ملكا على سالونكا . ولم يكتف بونيفاس بهذا النفوذ على حساب الامبراطور ، وإنما زحف على رأس فرسانه على أثينا ومنح السيادة الإقطاعية على أتيكا وبوموتيا إلى واحد من أتباعه هو أوتو دي لاروش البرغندي . كذلك أذن بونيفاس إلى فارسين مغامرين هما ولیم من شامپليت وجيوفري من قلهااردوان بغزو شبه جزيرة البلويوتيز وتحويلها إلى إقطاع فرنجي . ونجح الفارسان في مهمتهما ، وبذلك قامت الإمارات الإقطاعية الفرنجية على أرض المورة (آنتايا) ، وأصبحت هذه هي أهم الإقطاعات في الامبراطورية على عهد الحكم الصليبي ، فقد كانت صورة طبق الأصل للنظم الإقطاعية السائدة في فرنسا ، التي هي البيت الأول لإقطاع العصور الوسطى .

أمام هذه الموجات المتتالية من الغزو الفرنجي للولايات البيزنطية ، فر الكثيرون من وجه الغزاة وتجمعوا حول بعض النبلاء الوطنيين ثم أقاموا حكومات في المنفى ، ظلت تكافح بغية تحقيق حلم غال وهو تحرير الأرض البيزنطية : ففي آسيا الصغرى أسس تيودور لاسكاريدس (لاسكارس) - وهو زوج ابنة الامبراطور الأسبق الكسيوس الثالث انجيلوس الذي خلعه الصليبيون - حكومة في نيقيا سرعان ما عرفت باسم امبراطورية نيقيا .

وفي غربي بلاد اليونان أقام ميخائيل انجيلوس - وهو ابن عم الكسيوس الثالث سالف الذكر - دولة في أيروس . كذلك قامت حكومة بيزنطية ثالثة في طرابيزوند جنوب شرقي البحر الأسود ، قبيل سقوط القسطنطينية في أيدي الصليبيين . وقد أسس هذه الدولة أميران من بيت كومتين هما الأخوان الكسيوس وداود ، وهما حفيدا اندرونيكوس كومتين . وقد نقل هذان الحفيدان عقب مقتل جدهما إلى بلاط مملكة جورجيا ، حيث تبنت قضيتهما الملكة الأم تامار (١١٨٢ - ١٢١٢ م) وساعدتهما في الاستيلاء على طرابيزوند سنة ١٢٠٤ م . وتمكن الأخ الأصغر داود من الاستيلاء

أيضا على سينوب وفلاجونيا وهرقلية ، وضمها جميعا إلى تاجه في طرايزوند .
ولإى جانب هذه الحكومات البيزنطية الثلاث الكبرى نجح نفر آخر من
النبلاء البيزنطيين في إقامة إمارات صغيرة في آسيا الصغرى يحكمونها بأنفسهم :
ومن بين هؤلاء تيودور مانكافيس الذي أعلن استقلاله بمنطقة فلادلفيا ، ومانويل
ماوروزوميس الذي استقل بالأراضي الواقعة في وادي نهر مياندر ، ثم ساباس
اسيديوس الذي انفرد بمنطقة سمسون على مقربة من ملطية .

كانت أقوى هذه الحكومات البيزنطية جميعا حكومة نيقيا بزعامة
تيودور لاسكارس . وكان الامبراطور اللاتيني بلدوين قد وعد صديقه
وزميله في الحملة الصليبية الرابعة الكونت لويس من بلوا بأن يقطعه نيقيا إن هو
نجح في الاستيلاء عليها من أيدي لاسكارس . وقد قاد لويس وهنري — شقيق
بلدوين — جيشاً ضد لاسكارس وذلك قرب نهاية سنة ١٢٠٤ م . واشتبك
الفرنجية مع جيش لاسكارس عند بلدة هومانيون ، وسقطت معظم مدن
بثينيا في أيدي الفرنجية . وبدأ أن أمل البيزنطيين في امتلاك آسيا الصغرى قد
انتهى تماماً ، لولا أن كارثة لحقت بالجيش الفرنجي الأكبر بقيادة الامبراطور
في البلقان ، وجاءت تلك الأنباء فاضطر هنري ولويس إلى التراجع عن آسيا
الصغرى .

كان الفرنجية الذين احتلوا تراقيا قد تقاسموا أرضها إقطاعاً على حساب
أصحابها البيزنطيين . على أنهم سرعان ما وقعوا في خلاف مع كالجوجان ملك
البلغار ، جارهم القوي . وكان كالجوجان قد رحب بأصحاب الأرض البيزنطيين
الذين فقدوا ممتلكاتهم ، وتبنى قضيتهم خاصة بعد أن أبدى البيزنطيون
استعدادهم لتتويجه امبراطوراً عليهم إن هو حرر الأرض البيزنطية من الفرنجية .

هجم الخان البلغاري والثوار البيزنطيون على الفرنجية في ديديموتيوخوس
التابعة لبولدين ، وفي أدرة التابعة للبندقية ، وعلى بعض المدن الأخرى
في تراقيا ، فقتلوا عدداً وافراً من الفرنجية وفر البعض الآخر . وبعد أن نجح

الخان البلغاري في غزو تراقيا، طوق الجيش الفرنجي بقيادة بولدوين عند أدرة في ١٤ أبريل سنة ١٢٠٥ م . وأوقع به هزيمة نكراء ، وسقط الامبراطور اللاتيني أسيراً في يد خان البلغار . واختفى بلدوين من صفحات التاريخ ، فنحن لا نكاد نعرف شيئاً عن مصيره بعد ذلك اليوم . وقد هلك العديد من فرسان الفرنجة في ميدان المعركة ذاتها ، ومن بينهم الكونت لويس من بلوا الذي كان يتأهب — منذ وقت قليل — للاستيلاء على نيقيا من أيدي لاسكارس في آسيا الصغرى . وهكذا فإنه بعد عام واحد من الغزو اللاتيني لبيزنطة انهار الجيش الفرنجي تماماً على يد جيش البلغار وقبائل الكومان .

وقد أثقلت هذه الكارثة التي حلت بالفرنجة لاسكارس صاحب نيقيا ، الذي انتهر الفرصة وسيطر على معظم أراضي آسيا الصغرى التي كانت قد سقطت في أيدي الفرنجة ، ولم يبق لهم فيها سوى مدينة واحدة هي بيجاي (Pegae) . ثم أخذ لاسكارس في تنظيم شئون دولته ، متبعاً في ذلك نفس التنظيمات البيزنطية التقليدية في الحكم والإدارة والجيش والبلاط ، ثم عين بطريركا للعاصمة ، وتوجه البطريرك الجديد في حفل ديني كبير سنة ١٢٠٨ م على أنه « امبراطور بيزنطة » .

أما بالنسبة للامبراطورية الصليبية في القسطنطينية ، فإنه بعد اختفاء بلدوين أسيراً في يد خان البلغار ، توج شقيقه هنري خلفاً له . وقد نجح هنري في استرجاع تراقيا ، وفي نهاية سنة ١٢٠٦ م قاد حملة ضد لاسكارس في آسيا الصغرى . غير أن الخان البلغاري عاود هجومه على البلقان ، فاضطر هنري إلى عقد هدنة مع لاسكارس لمدة عامين ، وذلك في ربيع سنة ١٢٠٧ م . وفي أكتوبر من نفس العام قتل الخان البلغاري كالوجان أثناء حصاره لمدينة سالونكا . ولا شك في أن كالوجان كان صاحب الفضل الأكبر في إنقاذ حكومة المنفى في نيقيا وسيدها لاسكارس من هلاك محقق على أيدي اللاتين . وقد كان يحلو للخان البلغاري أن يخاطبه الناس بلقب « جزار الفرنجة » .

على أن حكومة نيقيا لم يكن عليها أن تصارع اللاتين فحسب . وإنما كان عليها أيضا أن تقاوم ضد سلطنة قونية التركية . فإلى جانب العداوة التقليدية بين الترك والبيزنطيين ، عمل هنري داندولو دوج البندقية على أن يعقد حلفاً مع الأتراك في آسيا الصغرى ضد امبراطورية نيقيا في سنة ١٢٠٩ م . وتحرك لاسكارس فأبرم حلفاً مع ليون الثالث ملك أرمينيا الصغرى . في قليقيا ، ضد الأتراك . وقد زاد من ثوتر الموقف بين نيقيا وقونية أن الكيسوس الثالث انجيلوس ، الامبراطور البيزنطي الذي كان الصليبيون قد خطعوه عن العرش سنة ١٢٠٤ م . قد لجأ إلى بلاط السلطان التركي في قونية وطلب منه أن يعينه في إعادته إلى العرش البيزنطي الذي قد « اغتصبه » الآن زوج ابنته لاسكارس في نيقيا . ودار القتال بين الأتراك والبيزنطيين على مقربة من انطاكية سنة ١٢١١ م ، وانتصر لاسكارس على السلطان السلجوقي كيكاوس الأول في المعركة ، ووقع الكيسوس الثالث انجيلوس — ضيف السلطان — أسيراً ، فألقى به زوج ابنته في السجن ليقتل فيه بقية حياته .

لم يهدأ الصراع بين هنري الامبراطور الصليبي للقسطنطينية وبين لاسكارس سيد نيقيا . ففي ١٥ أكتوبر سنة ١٢١١ م هجم الجيش الصليبي على جيش نيقيا وألحق به هزائم متلاحقة على ضفاف نهر رنداكوس (Rhyndacus) وعند برغامة وفي نمفايوم (Nymphaeum) . واضطر لاسكارس إلى عقد الصلح مع هنري ، وبمقتضى ذلك احتفظ الصليبيون بالركن الشمالي الغربي من اسيا الصغرى حتى بلدة أدرامتيوم (Adramyttium) في الجنوب . وترك الجزء المتبقي والممتد حتى الحدود مع السلاجقة إلى حكومة نيقيا . وهكذا اعترف الامبراطوران واحدهما بالآخر ، لأن واحداً لم يستطع القضاء على الثاني .

أفادت هذه المعاهدة حكومة نيقيا بأن سمحت لها بفترة من السلام مع الصليبيين . وقد عزز هذا الصلح زواج لاسكارس — للمرة الثالثة — من أميرة لاتينية هي ماري ابنة أخت الامبراطور هنري . وفي أغسطس ١٢١٩ م عقد

لاسكارس صلحاً مع البندقية وسمح لها بامتيازات تجارية في امبراطوريته .
ونلاحظ أن لاسكارس يتخلع على نفسه في وثائق تلك الفترة اللقب الآتي
« Theodorus in Christo Deo fidelis imperator et moderator Romanorum
(Graecorum) et semper augustus Commanus Lascarus. »

وكان من بين النتائج الهامة للسلام الذي ساد بين نيقيا والصلبيين أن
انهارت مطالب آل كومنين - سادة طرابيزوند - في العرش البيزنطي ،
وفي سنة ١٢١٤ م نجح لاسكارس في ضم هرقليا وآمستريس إلى امبراطوريته
ولكن السلاجقة تدخلوا في الموقف واستولوا على سينوب وتوجوا صديقهم
الكسيوس كومنين (الأصغر) على عرش طرابيزوند على أن يكون فصلاً
لسلطان قونية . وظلت امبراطورية طرابيزوند منعزلة عن العالم البيزنطي
الحقيقي ، ولم تشارك البيزنطيين في استرداد القسطنطينية ولم تتدخل من قريب
أو بعيد ، مؤثرة الانعزالية ، فمهدت بهذا المسلك لسقوطها الأخير في أيدي
العثمانيين .

أما عن حكومة المنفى البيزنطية الأخرى فهي مملكة ايروس التي أسسها
ميخائيل انجيلوس في المنطقة الواقعة بين دورازو وخليج كورنثة . وكانت تضم
إلى جانب ايروس كلاً من اكارنانيا واثيوليا . ومن موقعها هذا راحت
حكومة ايروس تناهض مملكة بونيفاس دي مونت فرات الصليبية التي قامت
اغتصاباً في الجانب الشرقي من البلقان ، في سالونكا . كذلك كان على
صاحب ايروس أن يصارع البنادقة الذين سيطروا على البحر الأدرياتي ،
وأن يجاهد ضد السلاف في الشمال والشمال الشرقي لحدود مملكته . وكان هدف
سيد ايروس الأسمى أن يتم تحرير القسطنطينية على يده ، وهو نفس الهدف
الذي كان يسعى إليه تيودور لاسكارس في نيقيا . في سنة ١٢١٥ م توفي
ميخائيل انجيلوس فخلفه في حكم ايروس أخوه تيودور . وكان هذا الأخير
قد أقام بعضاً من الوقت في بلاط نيقيا ، حيث أقسم بحسن الولاء والطاعة لسميه
تيودور لاسكارس . ولكن ما أن اعتلى تيودور انجيلوس عرش ايروس

حتى تنكر للقسم الذي كان قد أداه ، فكان لا بد من احتدام الصراع بين الطرفين .

والواقع أن تيودور انجيلوس قد حقق لنفسه وللملكته في ابيروس شهرة طائلة طلعت على شهرة لاسكارس نفسه : فقد علم بقدوم امبراطور صليبي جديد ليخلف هنري الذي توفي سنة ١٢١٦ م ، وهو بطرس من كورثينا زوج يولاندة شقيقة هنري . وكان بطرس قد توج على يد البابا في مدينة روما ثم بدأ رحلته نحو القسطنطينية . نصب تيودور انجيلوس كنيسا للامبراطور الجديد وقبض عليه في الممرات الجبلية لألبانيا وألقى به في السجن حيث مات . ولذا فقد اضطلعت يولاندة بالوصاية على الحكم في القسطنطينية حتى ماتت سنة ١٢١٩ م ، فآل التاج إلى ابنها الضعيف روبرت . انتهز تيودور انجيلوس الفرصة وهاجم مملكة سالونكا وبعد حصار مرير دخلها ظافراً ، في سنة ١٢٢٤ م . وهكذا قضى آل انجيلوس على المملكة الصليبية القوية التي كان بونيفاس دي مونت فرات قد أقامها في مقدونيا وتساليا . وعلا نجم تيودور انجيلوس الذي امتد نفوذه على الأراضي الممتدة بين البحر الأدرياتي وبحر إيجه . وكان هذا النصر كفيلاً بأن يجعله يتلقب باللقب الامبراطوري أوتوقراطوراً للبيزنطيين . وقد تم حفل تتويجه امبراطوراً في بلدة أوخريدا على يد رئيس الأساقفة ديمتريوس كوماتيانوس . وبهذا يكون تيودور انجيلوس قد ألقى بالقفاز في وجه تيودور لاسكارس امبراطور نيقيا .

ودار الصراع على تربة بيزنطة بين أربع قوى هي : اللاتين ، وخان بلغار ، وحكومة ابيروس ، وحكومة نيقيا ، كل يسعى للاستحواذ بالامبراطورية البيزنطية .

وقد قدر لحكومة نيقيا دون سواها أن تحصل على هذا الهدف الأكبر . ولقد قرب المسافة على حكومة نيقيا ذلك التدهور الذي أصاب أحوال اللاتين في القسطنطينية ، وتلك الأخطاء التي تردى فيها حكام ابيروس ثم أخيراً تلكم

الرعوة التي اتسمت بها سياسات خان البلغار .

في سنة ١٢٢٢ م خلع تيودور لاسكارس تاج الامبراطورية في نيقيا على زوج ابنته يوحنا الثالث فاتانزيس (١٢٢٢ - ١٢٥٤ م) . وفاتانزيس هو أهم أباطرة نيقيا ، وقد سار على سياسة لاسكارس فجعل من دولته قوة مهيبة ابحانب في الشرق والغرب . والواقع أن أشقاء تيودور لاسكارس قد غضبوا لأنهم حرموا من التاج الذي أنعم به تيودور على زوج ابنته . وتآمر آل لاسكارس مع الصليبيين ضد فاتانزيس ، ولكن هذا الأخير نجح في إلحاق الهزيمة بخصومه جميعاً في واقعة پويمانيون (Poimaneon) ، واضطر الصليبيون إلى توقيع اتفاقية مع فاتانزيس سنة ١٢٢٥ م ، تخلوا بمقتضاها عن كل الأراضي التي كانت لهم في آسيا الصغرى ؛ فيما عدا الشريط الساحلي المقابل للقسطنطينية والمناطق المحيطة بنيقوميديا . وفي نفس الوقت نجح الأمطول الذي كان لاسكارس قد بناه منذ زمن . في احتلال جزائر لسبوس ونيوس وساموس وإكاريا . واضطرت جزيرة رودس أيضا إلى الاعتراف بنفوذ حكومة نيقيا عليها . بعد هذا الانتصار راح فاتانزيس يتحرش بخصمه البيزنطي العتيد تيودور انجيلوس صاحب ابيروس ، فاستغل دعوة وجهها إليه أهالي أدرنة وزحف على أراضي خصمه ، ولكن تيودور انجيلوس هجم على جيش نيقيا من المؤخرة وأجبره على التقهقر . وقد عزز هذا الصمود أمام جيش نيقيا القوي من همة وطموح تيودور انجيلوس ، فقرر الزحف نحو القسطنطينية لتحريرها من أيدي الصليبيين . ولكنه في هذا المسمى اصطدم بخان البلغار يوحنا الثاني آسن (١٢١٨ - ١٢٤١ م) ؛ الذي كان يخطط هو أيضا للفوز بتاج بيزنطة ليزين به رأس «عاهل البلغار والروم» . وقد ساعدت الأحداث على تأصيل هذا الحلم في خيال الخان : ففي سنة ١٢٢٨ م توفي روبرت كورتيي و انتقل تاج القسطنطينية إلى شقيقه القاصر بلدوين الثاني . وهنا فكر المسئولون من الصليبيين في القسطنطينية في أن يضعوا بلدوين الثاني القاصر تحت وصاية الخان البلغاري لحماية أنفسهم ومصالحهم من مخططات ابيروس ونيقيا .

وتعزيزاً لهذه السياسة طرح مشروع زواج بلدوين الثاني من هيلين ابنة الخان البلغاري . غير أن هذه الخطة أثارت غضب تيودور انجيلوس صاحب ابيروس ، فبادر بإعلان الحرب على الخان البلغاري . وقد كان هذا التهور من جانب صاحب ابيروس سبباً في ضياع مملكته ، فقد ألحق به الخان هزيمة ساحقة عند كلوكوتنزا (Klokotniza) في ربيع سنة ١٢٣٠ م . ووقع تيودور انجيلوس أسيراً في يد الخان ، الذي أمر بسمل عينيه . وإن كان قد أفرج عنه بعد قليل بعد أن افتتن بجمال ابنة أسيره فأطلق سراحه مقابل زواجه من هذه الابنة . وانهارت كل الجهود التي كان صاحب ابيروس قد جاهد في سبيل تحقيقها . ولم يتمكن خليفة تيودور انجيلوس ، وهو مانويل شقيقه ، من التطلع بعد هذا إلى القسطنطينية . لأن الخان البلغاري استولى على أملاك ابيروس في سالونكا وراقيا ومقدونيا وألبانيا . كذلك عمل الخان على تقويض نفوذ آل انجيلوس في بلاد الصرب ، فخلع الأمير رادزلاف . زوج ابنة لتيودور انجيلوس . عن العرش وعين مكانه أخا للأمير المخلوع هو فلادزلامث ثم زوجه من إحدى بناته .

على أن أهم ما يجب ملاحظته هنا أن هذا الصراع المرير بين الخان البلغاري واللاتين وحكومة ابيروس لم يخدم طرفاً بقدر ما يخدم امبراطور نيقيا ، الذي كان يتابع الأحداث من بعيد وفي حذر بالغ . وكانت الأمور تسير بطريقة تخدم مصالحه : فلقد خلصه الخان — دون قصد منه — من خصمه العنيد تيودور انجيلوس في البلقان . ثم ما لبث الصليبيون أن انقلبوا على حليفهم الخان وتبذوا مشروع وصايته على امبراطورهم بلدوين الثاني . بعد أن وقع اختيارهم على حنادى برين ملك بيت المقدس العجوز ليجلس على عرش القسطنطينية وليفيد بخبرته الطويلة في المشرق في الصراع الدائر بينهم وبين البيزنطيين وأيضاً في الصراع المرتقب ضد حليف الأمس وعدو اليوم يوحنا الثاني آسن خان البلغار الأكبر . وهنا التفت الخان إلى فئاتازيس صاحب نيقيا ووقع معه معاهدة وحلفاً في بلدة جاليبولي سنة ١٢٣٥ م ضد الصليبيين . وتم زفاف

هيلين ابنة الخان . التي كان قد اتفق سابقا على زواجها من بلدوين الثاني الصليبي ، من تيودور الثاني ابن فانتازيس . وقامت حملة مشتركة من البلغار وبيزنطيين نيقيا لمحاصرة القسطنطينية براً وبحراً في سنة ١٢٣٦ م . وبينما شدد الحلفاء حصارهم على القسطنطينية أخذ الخلاف يدب بين صاحب نيقيا والخان . وتفسير ذلك أن الخان قد أدرك أن سقوط القسطنطينية لن يعود بالنفع إلا على سيد نيقيا وحده . وغدر الخان بصاحبه فعقد حلفاً مع الصليبيين المحاصرين وأعلن الحرب على حليفه فانتازيس ثم حرض قبائل الكومان والصليبيين على مهاجمة مدينة تزورولوم (Tzurulum) في تراقيا ، التي كانت تخضع لامبراطور نيقيا .

غير أن الأقدار لقت الخان المتقلب العواطف درساً مريراً : فلقد تفشى الوباء في شعبه في مدينة ترونوفو (Tronovo) ، وكانت زوجته أولى الضحايا ، ثم لحقها ابنها ، وهلك بين من هلك أيضا بطريك البلغار . ونظر الخان إلى هذه الكوارث التي تلاحقت تباعاً على أنها قصاص السماء ضد الغدر . ولذا فإنه رفع الحصار عن مدينة تزورولوم وعقد صلحاً جديداً مع فانتازيس سنة ١٢٣٧ م . وبعدها بقليل توفي الخان منكسراً مهموماً ، ثم ابتلى البلغار بأذى أشد وأنكى عندما جرفهم غزو تاتار القرن الذهبي فتحطمت دولتهم تماماً . والآن بقي على المسرح بطل واحد هو فانتازيس امبراطور نيقيا .

في سنة ١٢٤٢ م قاد فانتازيس حملة ضد خصومه البيزنطيين في سالونكا ، حيث كان تيودور انجيليوس قد خرج من سجن البلغار وراح يمارس الحكم ، وهو ضريب ، بمعونته ابن له يدعى يوحنا . ولما أن شدد فانتازيس من هجومه على خصمه يادر تيودور انجيليوس إلى طلب الصلح ووافق على شروط فانتازيس بأن أسلمه العلامات والنباشين الامبراطورية وأقسم له أنه لن ينافسه في السعي نحو عرش القسطنطينية ، وبأنه سوف يظل تابعاً مخلصاً لسيد نيقيا . وأسرع فانتازيس عائداً إلى آسيا الصغرى عندما أئته الأخبار عن زحف المغول على أراضي آسيا الصغرى .

في الأربعينات من القرن الثالث عشر زحف المغول أو التتار^(٣) من قلب آسيا قبالة الغرب . ويعرف المغول في المصادر البيزنطية باسم « النهار » أو « الأتار » . تحرك المغول في خطين مختلفين : الأول شمالي نحو شرقي أوروبا ، والثاني جنوبي قبالة الشرق الأوسط . اكتسح الفرع الأول روسيا وسقطت كييف تحت أقدامهم سنة ١٢٤٠ م . ثم عبروا جبال الكربات ووصلوا إلى بوهيميا فصدوا واضطروا إلى التقهقر إلى استيس روسيا . وفي نفس الوقت وصل الفرع الجنوبي إلى الشرق الأوسط فاستولوا على أرمينيا كلها بما فيها أرض الروم (Erzerum) ثم غزوا آسيا الصغرى وعزقوا قوة الأتراك السلاجقة في قونية وامبراطورية طرابيزوند البيزنطية . واضطر سلطان قونية وصاحب طرابيزوند إلى دفع الجزية للمغول والاعتراف بالتبعية للخان الأكبر للمغول . وقد نجحت حكومة نيقيا من هول المغول بسبب تغير طارئ في التحركات فحسروا تقدمهم قبالة الغرب . على أن أهم ما يعنينا هنا ما رده مؤرخ لاتيني معاصر هو متى من بارس (Matthew of Paris) من أقاويل سرت في الأوساط اللاتينية : فهو يقول إنه في سنة ١٢٤٨ م وصل سفيران مغوليان إلى البلاط البابوي في روما وقابلا البابا انوسنت الرابع ، الذي كان وكرادته يتوقون إلى تنصير المغول على المذهب الروماني . ويروي هذا المصدر أن الرسالة الأولى الموجهة من الخان المغولي إلى البابا تحوي قيما تحتويه عرضا بأن يشن المغول حربا ضد الامبراطور البيزنطي يوحنا ثاتازيس (باتاكيوم) صاحب نيقيا « ذلك اليوناني ، صهر فردريك الثاني . الانفصالي المتمرد ضد الكيوري البابوية »^(٤) . وفي رواية أخرى لنفس الكاتب في مؤلفه بعنوان « Historia Anglorum » نطالع أن البابا قد طلب من السفراء المغول أن يبلغوا سيدهم الخان الأكبر بأنه إن كان حقا قد اعتنق النصرانية فإنه

(٣) أنظر ما يمهده ، الفصل الخامس يتحركات المغول في عصر باليولوجوس .

(4) Matthew of Paris, Chronica Majora, (ed. H.R. Luard), V. 37-38; K. Pertz, Monumenta Germaniae Historica Scriptores, XVIII, 301-302.

يُحسن به أن يزحف بجيوشه ليسحق يوحنا قاتانزيس « ذلك اليوناني » صهر فردريك ، الانفصالي ، المتمرد ضد البابا وخد بلدوين (امبراطور بيزنطة اللاتيني) ، وبعدها فليزحف ضد فردريك نفسه الذي شق عصا الطاعة ضد البابوية^(٥) . ويستطرد نفس المصدر راوياً بأن السفراء المغول الذين لم يرغبوا في تشجيع عوامل الكراهية بين مسيحيي الغرب والشرق قد أغادوا البابا -- عن طريق المترجمين -- بأنهم لن يستطيعوا طرح هذا الأمر على سيدهم ؛ لأنه سوف يغضب إن هو علم بتلك النوايا^(٦) .

ولا يجوز لنا أن نصدق أياً من هاتين الروايتين ، فما ورد فيهما إنما يعكس أقاويل الصالونات في الغرب اللاتيني في ذلك الوقت من القرن الثالث عشر ، فهي أبعد ما تكون عن الصدق التاريخي^(٧) .

انتهاز قاتانزيس فرصة الانهيار الذي حل بالبلغار على يد التتار ، وقرر أن يحسم الموقف في البلقان . وسار على رأس حملة سنة ١٢٤٦ م ليحقق أغراضه واستولى بالفعل على تراقيا ومقدونيا ، ولم يقدر الملكان البلغاريان كولومان (١٢٤١ - ١٢٤٦ م) وميخائيل (١٢٤٦ - ١٢٥٦ م) على التصدي لقوة سيد نيقيا . وبعد هذه الانتصارات زحف قاتانزيس على سالونكا واستولى عليها ، بل إنه قد لقي ترحيباً حاراً من الأهليين . واختفت بذلك امبراطورية ابيروس من الوجود . وقد عوض الامبراطور خصمه تيودور انجيلوس بإمارة في أراضي قودينا ، ثم ساق ابنه ديمتريوس سجيناً إلى آسيا الصغرى ، وعين حاكماً من قبله على سالونكا هو اندرونيكوس باليولوجوس .

(5) Matthew of Paris, *Historia Anglorum*, (ed. F. Madden), III, 38-39.

(6) Ibid.

(7) See P. Pelliot, « Les Mongols et la Papauté », *Revue de l'Orient Chrétien*, XXIV (1924), 330-31; XXVII (1931-32), 3-84; *Cambridge Medieval History*, Vol. IV, 493; A.A. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, Vol II, p. 532.

كان فانتاتريس على صلات طيبة مع سيد عصره فردريك الثاني هوشتاوفن امبراطور الدولة الرومانية المقدسة في الغرب . وفردريك هذا هو ألمع الملوك الألمان جميعاً على مدار العصور الوسطى ، وكان يحكم كلاً من ألمانيا ومملكة صقلية . وقد أمضى فردريك طفولته الباكرة في بالرمو حيث عايش اليونان والعرب والنورمان . وكان يجيد الإيطالية واليونانية والعربية . ولكنه — وهو ملك الألمان — لم يكن يحسن اللسان الألماني حتى في عنفوان شبابه . وفردريك عقل سابق لعصره ، فلم يكن ينظر للمسائل الدينية بعين رجال العصور الوسطى ولا بعقلهم . وكان بلاطه ذاخراً بالعلماء العرب الذين علموه الفلسفة والعلوم البحتة ، وهو الذي أسس جامعة نابلي الشهيرة وكذا مدرسة الطب المرموقة في سالرنو . ولم يكن في أوروبا قاطبة من يفهم فردريك الثاني ، الذي كان أشبه ما يكون بأمرأ عصر النهضة وليس على شاكلة فرسان العصر الوسيط الأجلاف ، ولذا يلقبه المؤرخون بلقب « معجزة الدنيا » (Stupor mundi) ؛ لأنه كان ، وبحق ، سابقاً لعصره وزمانه في كل أفكاره وفي نظراته للحياة . وقد رأى فيه المعجبون بشخصه محرك النهضة في أوروبا ، والمهد الأول لسقوط العصر الوسيط ويزوغ فجر العصور الحديثة⁽⁸⁾ .

كان فردريك — كأسلافه من الهوشتاوفن — يمثل تجسيدا لمفهوم الامبراطورية العالمية ، وهذا يقول له صلاحيات لا حدود لها ، فهو مفوض من قبل الله على الأرض . ومن هذا المنطلق فإن خليفة شرلمان كان يرى في البابا تابعا له ، ولذا فإنه يعيب على البابوية طموحها الزائد وحشر أنفها في الأمور الدنيوية ؛ مغفلة في صراعها لتحصيل هذا الهدف أمور الدين ورعاية الروح . ولذا فإن صراعاً مريراً وقع بين فردريك الثاني وبين البابوات ، الذين

(8) See J. Huillard-Bréholles, Introduction à l'histoire diplomatique de l'empereur Frédéric II, DLVII; M. Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, III (2), 616 (2nd ed. 1937). 628; E. Kantarowicz, Kaiser Friedrich der Zweite, 613.

أنزلوا عليه لعنة الحرمان مرات ثلاث ، وجعلوا هدفهم الأكبر « استئصال شأفة ذلك الثنين الألماني » . ولما كانت البابوية — وهي التي خططت لسقوط بيزنطة في أيدي اللاتين سنة ١٢٠٤ م — تجد تأييداً كبيراً لمزاعمها من جانب الامبراطورية الصليبية التي أقامها الفرنجة في القسطنطينية ، فقد كان طبيعياً أن يتناصب فردريك الثاني العداء للامبراطورية اللاتينية في بيزنطة . وهنا التقت مصالح فردريك مع مصالح يوحنا ثانتازيس امبراطور نيقيا ، الذي كان يعمل جاهداً لاسترداد بيزنطة من أيدي غزاتها اللاتين . يضاف إلى هذا أن البابوية لم تعترف بالبطريركية الأرثوذكسية التي استحدثها ثانتازيس في نيقيا ، وهي بطريركية المنفى بضرورة الحال . والواقع أن فردريك الثاني لم يكن ليشغل باله بالمسائل الدينية ، فهو لا يفرق كثيراً بين الأرثوذكس والكاثوليك . وعد فردريك بأن يساعد ثانتازيس في تحرير القسطنطينية من أيدي الصليبيين وأن يعيدها لأصحابها الشرعيين ، على أن يصبح ثانتازيس فصلاً للعاهل الألماني ، وأن يعمل البيزنطيون على إعادة الوحدة بين كنيستهم وكنيسة روما . ولقد ازدادت العلاقات بين الامبراطورين تماسكاً ، حتى إننا نرى كتاب بيزنطية تحارب في صفوف جند فردريك في إيطاليا ضد أعداءه في العقد الرابع من القرن الثالث عشر . ثم توطدت العلاقات بين الطرفين بشكل أوضح بعد وفاة زوج ثانتازيس الأول — وهي ايريني ابنة تيودور لاسكارس — فلما أن كان الامبراطور الأرمل « لم يعد يطيق العزلة » فقد تزوج من كونستانس ابنة فردريك الثاني التي كانت تبلغ من العمر إحدى عشر ربيعاً فحسب . وقد وضحت سعة أفق والدها بأن سمح لها أن تدخل بهذا الزواج في عضوية الكنيسة الأرثوذكسية ، وتسمت اسماً إغريقياً فعرفت باسم أنا (Anna) ^(٩) . ولدينا قصيدة طويلة قرصها الشاعر نيقولا ارنيكوس بمناسبة هذا الزفاف الميمون الذي تم في نيقيا ، ويشبه شاعرنا العروس بالبلابة

(9) Nicephorus Gregoras, Historia Byzantina, II, 7, 3; (Bonn ed) 1, 4 s.

ويخفيها العريس بنفح الورود^(١٠) . وقد قدر للامبراطورة أننا أن نعيش سنيناً طويلاً بعد رحيل زوجها الامبراطور ، وشهدت خلال تلك السنين أحداثاً خطيرة للغاية ، وانتهت أيامها وهي تقبع في فالنسيا الاسبانية ، ودفن جثمانها في كنيسة صغيرة هناك تعرف باسم كنيسة القديس يوحنا الاسبتيالي St. John-of-the-Hospital ، وكتب على ضريحها « هنا ترقد السيدة كونستانس الامبراطورة المهيبة لليونان^(١١) » .

كان فردريك الثاني صاحب فلسفة خاصة تجاه المسائل الدينية ، ولعله في هذا يطل كرائد من رواد حركة الإصلاح الكنسي قبل أوانها ، الأمر الذي دعى بعض المفكرين إلى مقارنته بهنري الثامن ملك إنجلترا الذي ابتدأ حركة الإصلاح الديني في بلاده . وتطالعنا رسائل فردريك الثاني إلى فانتاتريس ببعض من الآراء التي كان العاهل الألماني يؤمن بها : ففي إحدى هذه الرسائل يقول الامبراطور فردريك بأنه قد دفع إلى الكتابة إليه لا لخبه له فحسب ، وإنما أيضاً لأنه يود أن يؤكد له تأييده الكامل ومساندته للمبادئ التي تقوم عليها نظم الحكم الملكي : « نحن جميعاً ، معشر الملوك والأمراء على الأرض ، خاصة هؤلاء منا الذين يناصرون المبادئ الأرثوذكسية وأيماناتها ، نضمر عداوة شديدة للمطارنة ومعارضة وجدانية لأساقفة الكنيسة وأخبارها » . ثم يعدد فردريك الرذائل التي تردى فيها رجال الاكليروس في غرب أوروبا اللاتيني بسبب اساءة استخدام الحرية التي أعطيت لهم . وينتهي فردريك رسالته هذه بالصيحة الآتية : « يا لسعد آسيا ! يا لحسن حظ حكام الشرق ! إنهم لا يخشون سلاح رعيتهن ، ولا يجرؤ مطارنتهن على حشر أنوفهم فيما

(10) G. Schlumberger. « Le Tombeau d'une impératrice byzantine à Valence », Revue des Deux Mondes, XVII (1902); Gardner, Lascarids of Nicaea, 308.

(11) Schlumberger, op. cit., loc. cit.; C. Diehl, « Constance de Hohenstaufen, impératrice de Nicée », in Figures byzantines, II, 207-25.

لا يعنيههم »^(١٢) . وفي رسالة أخرى إلى فانتازيس يبيدي فردريك حنوا نحو المبادئ الأرثوذكسية الشرقية ، وهذا واضح من الجزء الثاني من الرسالة : « عجباً لهذا الكاهن الأكبر (البابا) الذي ينزل على جلائكم كل يوم لعنة الحرمان ؛ على مرأى ومسمع من عامة الناس ومن رعايا قخامتكم . بل إنه (البابا) يمنع كنيستكم الأرثوذكسية بالمرطقة . تلك الكنيسة التي هي النبع الذي استقى منه الكون كله مبادئ العقيدة المسيحية »^(١٣) . وفي مناسبة أخرى كتب فردريك الثاني إلى فانتازيس يحذره من البابوية وكرادلة الغرب على أنهم « ليسوا قسيسين باسم المسيح وإنما هم ذئاب خاطفة ووحوش ضارية كل همهم امتصاص دماء الشعوب المسيحية »^(١٤) .

في أثناء ذلك كانت أحوال الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية قد ساءت إلى حد أن الامبراطور بلدوين الثاني قد أودع وحيداً ووريثه فيليب رهينة إلى التجار البنادقة مقابل قرض مالي ليواجه به أعباء الدولة . والحق أن جهود فانتازيس هي التي أنهكت موارد اللاتين في القسطنطينية ، الأمر الذي شدد من أمل البيزنطيين في استرداد عاصمتهم الغالية . ولكن القدر لم يمهّل فانتازيس ليشهد ذلك اليوم ، فقد توفي سنة ١٢٥٤ م بعد تلك الإنجازات الرائعة في سبيل الهدف الأسمى . توفي يوحنا فانتازيس وهو في الثانية والستين من العمر ، بعد حكم دام تسعاً وثلاثين عاماً . وهناك إجماع عجيب في المصادر البيزنطية في مديح هذا الرجل . كتب تيودور الثاني لاسكارس ، وهو ابن فانتازيس ووريثه ، في تأبين والده يقول : « لقد وجد الأرض التي مزقتها الأغراب الألداء من لاتين وفرس وبلغار وسكيذيين ، ولقد طهر البلاد من اللصوص ،

(12) Huillard-Bréholles, L'Histoire diplomatique de Frédéric II, dxvii - dxviii.

(13) N. Festa, « Le lettre greche di Federigo II, » Archivio Storico Italiano, XIII (1894), 22; the Latin text in Huillard-Bréholles, L'Histoire diplomatique de Frédéric II, VI, 772.

(14) Festa, ibid., 15-16.

وأمنها من الخوف وجعل من وطننا قلعة منيعة ضد الطامعين »^(١٥) . لقد صادف اسم يوحنا فئاتانزيس حباً شديداً في أفئدة الشعب البيزنطي ، حتى إنه بعد وفاته ببعض الوقت أصبح في عداد القديسين . ودارت حوله الأساطير الكثيرة ، كذلك يلاحظ أن التفويج الأرثوذكسي يضع اسم فئاتانزيس في أعياد الرابع من نوفمبر من كل عام^(١٦) .

(15) Unspensky. « Manuscripts of the History of Nicetas Acominatus ». Journal of the Ministry of Public Instruction, CXCIV (1877), 76; J.B. Pappadopoulos, Theodore II Lascaris empereur de Nicée, 43.

(16) Arch. Sergius, The Complete Liturgical Calender (Monologion) of the Orient (2nd ed., 1901), II, 344.

الفصل الثاني

پالووغوس ڀسٽرڊ القسطنطينية

« القسطنطينية اڪروپول العالم ، العاصمة
الامبراطورية للرومان (البيزنطيين) التي قدرت
لها السماء أن تكتوى بنار اللاتين ، قد
عادت مرة أخرى إلى أهلها البيزنطيين .
ولقد منَّ الله على الشعب بهذا الفضل من
تحلال جهودنا » .
(ميخائيل پالووغوس)

بعد وفاة قاتاتريس خلفه على عرش نيقيا ابنه تيودور الثاني لاسكارس
(١٢٥٤ - ١٢٥٨) . وكان تيودور هذا ذا طبع متقلب وميالاً إلى القسوة
والعتف . ويروى عنه أن أحد وزراءه المدعو جورج اڪروبوليتا كان قد نصح
له برأي أثناء إحدى الحملات على بلغاريا ، ولكن الرأي لم يصادف قبول
الامبراطور ، فأمر بطرح الوزير على الأرض وبضربه بالهروات حتى كاد
الرجل أن يموت . ولعل تلك القسوة ترجع إلى طبيعة المرض الذي كان قد
ورثه عن أبيه وهو داء الصرع ، الأمر الذي ابتلاه باستحواذ الخوف من دنو

الموت قبل الأوان . كما وأنه كان يرتاب فيمن حوله ، ظاناً أن أعداءه في البلاط قد دسوا له السم أو سلطوا عليه سلاطين السحر الأسود . ولقد أدت تلك الحالة النفسية السيئة التي أزم تيودور بها نفسه ومن حوله إلى ازدياد بطشه ، فكانت كل نوبة مرضية فذيراً بحركة لإعدام لبعض النبلاء وسمل عيون البعض الآخر . ولقد رأى المعاصرون في شخص تيودور طاغية متهوساً ، لا يملك واحدة من الصفات الطبية التي كان يتمتع بها والده . وبروي الكتاب عنه أن واحدة من نبيلات بيت باليولوغوس قد رفضت أن تزوج ابنة لها من واحد تقدم لها من رجال تيودور ، فاستشاط غضباً وأمر بالقبض عليها ، وكلف من أدخلها في كيس مع عدد كبير من القطط ، وأخذوا في وخز تلك القطط بالإبر لكي تفرغ جنونها في جسد تلك السيدة الحبيسة . غير أنه في الساعات الأخيرة من حياته ، طلب تيودور الصفح من رعاياه ، مبدئاً الندم على ما فعلته يده . ويبدو أن هذا الندم كان تعبيراً عن قلقه على مصير ولده ووريثه يوحنا الذي كان طفلاً في الثامنة من العمر . ولقد اختار تيودور لوريثه وصياً هو جورج موزالون ، كبير خدم القصر الذي كان من أفراد الشعب . والمعروف أن تيودور كان يمتك طبقة النبلاء ، ولذا فإنه قد أبعدهم عن شئون الوصاية على العرش .

وبعد وفاة تيودور عقد موزالون مجلساً واعتلى عرشاً عالياً وخاطب أعضاء المجلس معتذراً عن سوءات الماضي ، مبشراً بآمال الغد . وقد قابل النبلاء هذا الحديث بتصفيق حاد وراحوا يتملقون موزالون فخلعوا عليه لقب - مخلص الرومان » (البيزنطيين) . ولكن هذه المفاطات كانت تغطية مسرحية لمؤامرة تحاك خيوطها في الخفاء ضد موزالون : ففي اليوم التاسع بعد وفاة الامبراطور تيودور ، وفي أثناء صلاة جنازية في كاتدرائية ماغنيزيا على روح الامبراطور الراحل ، قوطعت القداسات على جلجلة السيوف والخناجر ، وقام الحرس باغتيال موزالون وإخوته وأتباعه في مذبحه رهيبه على أعتاب مذبح الكاتدرائية . وكان رأس الانقلاب نبيل بيزنطي هو ميخائيل باليولوغوس :

وهو ابن لأسرة عريقة لمع اسمها في حوليات بيزنطة منذ منتصف القرن الحادي عشر ، فالمعروف أن جورج باليولوجوس ، الجلد الأكبر للأسرة ، هو الذي ساعد آل كومنين في الحصول على العرش البيزنطي في أواخر القرن الحادي عشر . ويطلقنا ميخائيل الثامن باليولوجوس نفسه بأصل نسبه بقوله أنه ينتسب إلى بيت دوكاس وبيت كومنين وبيت أنجيلوس ، وهي بيوت امبراطورية كلها . ونستدل على ذلك النسب من توقيع ميخائيل باليولوجوس نفسه . . والواقع أن أبناء بيت باليولوجوس قد شغلوا منذ وقت بعيد أرفع المناصب في قيادات الجيش وفي مجال الحكومة . كما أن أسرة باليولوجوس كانت على صلة مصاهرة بأسرة تيودور لاسكارس الأول بطل حكومة المنفى في نيقيا .

كان ميخائيل يجمع في شخصه بين نبالة الأصل وشجاعة الجندي وفطنة رجل الدولة ، وقد رقي في صدر شبابه فكان قائداً لفرقة الفرسان المرتقة ، الذين كانوا في خدمة الدولة البيزنطية . وقد أحبه جنده حباً خالصاً ، وأخذ نجمه في العلو شيئاً فشيئاً حتى دار اسمه على كل لسان في البلاط . . . وبدأت السنة الحاقدين تحذر من هذا الشاب الطموح ، وأخذ الامبراطور يحقد عليه ويدبر لهلاكه . وقد تعرض باليولوجوس للخطر مرات ثلاث : أولها في عهد الامبراطور فانتازيس : فقد دخل ميخائيل باليولوجوس في مناقشة حادة مع واحد من ضباط الحرس الامبراطوري ، وراح هذا الضابط يشكو

"Μικαὴλ ἐν Χριστῷ Θεῷ πατρὶ
βασιλεὺς καὶ αὐτοκρατορ
Ἰωάννης Δαούκης Ἀγγιός
καὶ ἡμεῖς ὁ Μικαὴλ."

See Laurent, V. « La genéalogie de premiers Paléologues. » Byzantion VIII (1933), fasc. II, pp. 123-149.

See Palaeologus, Michael, De Vita sua opusculum, French translation in Chapman, C., Michel Paléologue, restaurateur de l'Empire Byzantin.

للامبراطور بأن ميخائيل قد صرح بأن لأسرته الحق في التاج البيزنطي . وأمر
الامبراطور الخصمين بالاحتكام إلى السيف لإظهار حقيقة ما وقع على ضوء
نتيجة المباراة ، وذلك وفقاً للتقاليد اللاتينية التي كان الصليبيون قد أتوا بها
إلى العالم البيزنطي منذ غزوهم للقسطنطينية سنة ١٢٠٤ . ومع أن باليولوغوس
قد هزم خصمه في المباراة ، إلا أن الشكوك ظلت تحوم حوله في كل جنبات
القصر . ولذا فإن صديقاً لباليولوغوس هو كبير أساقفة فيلادلفيا نصح له بأن
يقبل الاحتكام إلى النار لإثبات براءته . وعليه فقد غلفت ذراع باليولوغوس
في حقبة وأحكم اغلاقها على الذراع بأن وقع الامبراطور عليها بنفسه .

وفي يوم التحكيم كان على باليولوغوس أن يحمل بيده ، بعد إخراجها من
حقيبتها ، كرة من الحديد المتقدم من مدخل الكنيسة حتى مذبحها مرات ثلاث .
وإن لم تصب اليد بأذى أو حروق يكون باليولوغوس بريئاً أمام الامبراطور .
وكان باليولوغوس يومها محاطاً برجال القصر والمحكمين وعلى رأسهم
الامبراطور وكبير الاساقفة ، وقد كان الخطر الذي ينتظره قاتلاً ، فأسعفته
بديته فراح يحاطب كبير الاساقفة في حضرة الامبراطور قائلاً : « أيها الأب
المبارك ، إن أنا إلا رجل علماني مليء بخطايا وأدران هذا العالم ، ولكنك أنت
أيها المقدس بنعمة الله نقي وطاهر ، ولذا فلاني أتوسل إليك أن تسامني أنت
بيديك الطاهرتين الكرة الحديدية المتقدمة لكي أبرهن لصاحب الجلالة على
براءتي » . وكان انزعاج كبير الاساقفة عظيماً ، ولاحظ الامبراطور ذلك
تماماً ، وابتسم راضياً ومقدراً لباليولوغوس سرعة بديته ومكره البارع ،
فقرر تبرأته ، بل إنه أنعم عليه بمنصب عسكري رفيع .^(١٧)

وفي عهد ثيودور الثاني كان ميخائيل حاكماً على مدينة نيقيا ، ثم أبلغه

(17) Pachymeris, George, De Michaelis Palaeologo, Corpus Scriptorum Historiae
Byzantinae, 1, 1, C. 12.

بعض اصداقائه بأن الامبراطور يدبر خطة للقبض عليه وسمل عينيه . وكانت لدى ميخائيل المبررات الكافية التي جعلته يصدق القول ، فانتهاز فرصة غياب الامبراطور عن العاصمة نيقيا وهرب مع نفر من أتباعه المقربين إلى بلاط السلطان السلجوقي . وقد أثبت ميخائيل كفاءة نادرة في خدمة السلطان وقت الغزو المغولي للأراضي السلجوقية ، فقربه السلطان إليه . وبعد أن وثق صلته بالبلاط السلجوقي عمل على توثيق العلاقة الودية بين السلطان وبين بيزنطة فسمى إلى فتح صفحة سلام بين البحارين اللدودين . وبهذه الصفة الرابعة ضرب عصقورين بحجر واحد ، وأرسل إليه الامبراطور ثيودور بالعفو ورحب به عائداً ثم أتعم عليه بامتيازات جديدة .

وجاءت ثالثة المخاطر بينما كان ميخائيل يشرف على حراسة أملاك نيقيا في البلقان ضد تحرشات حاكم ابيروس الانفصالي ، فلقد أشارت إليه بعض الأصابع في القصر بالاتهام من جديد . ولذا فقد أرسل الامبراطور من قبض عليه وكيهه بالأغلال وساقه هكذا مغلولاً مسافةً تربو على ستمائة ميلاً من دورازو إلى نيقيا . وما أن وصل هذا الموكب المهين إلى القصر حتى كان الامبراطور ثيودور الثاني يلقظ أنفاسه الأخيرة ، فأصدر عفوه عن باليولوغوس بعد أن أقسم بيمين الولاء والطاعة لولي العهد يوحنا .

كان باليولوغوس أول من يادر بإعلان الولاء لشخص موزالون وللامبراطور الطفل ، ولكنه كان أيضاً أول من يادر بالعصف بهذا الولاء . وبعد المذبحة التي تمت في الكاتدرائية والتي اغتيل فيها موزالون وأفراد أسرته ، راح باليولوغوس يمهد الطريق لنفسه ، فأوعز لكل واحد من أقرانه على حدة بأنه الأفضل للاضطلاع بالوصاية على العرش ، ولكنه طلب من كل منهم أن يزكي باليولوغوس نفسه في حالة عدم فوزه بالمنصب المرموق . وانتهى الأمر باختيار باليولوغوس بطبيعة الحال للوصاية على الامبراطور الطفل يوحنا ، وتلقب باليولوغوس بلقب « الدوق الأكبر » ، وخضع النبلاء جميعاً لأمر باليولوغوس.

وكان الامبراطور الراحل فانتازيس قد احتفظ بكنوز الدولة في حصن منيع على ضفاف نهر هرموس تحت حراسة مشددة من فرقة الفرنجية المرتزقة . وكان باليولوغوس قد عمل زمناً قائداً لهذه الفرقة ، ولذا فإنه لم يكن من العسير عليه أن يستولي على تلك الكنوز ، ثم قام بتوزيع هبات منها على أفراد المرتزقة ، ضمناً لولائهم . ثم عمل باليولوغوس على اكتساب محبة الرعية فخفف عنهم عبء الضرائب كما أنه أصدر قراراً بتحريم المحاكمات التحكيمية بالنسار وبالمبارزة . كذلك وثق باليولوغوس علاقاته برجال الدين عموماً وبالبيتريرك البيزنطي على وجه الخصوص ، وتودد إلى رجال الدين بزياراته المتكررة لبيوت العبادة وياظهار سخاء زائد نحو مصالحهم . وعلى هذا فإنه عندما ألح نفر من أتباع باليولوغوس بأن أعياء الحكم في نيقيا تتطلب رجلاً صلباً ليشترك الامبراطور الطفل في تسيير دفة الأمور ، لم يجد باليولوغوس حرجاً في أن يخلع على نفسه أرفع الألقاب البيزنطية وهو لقب « أمير » (Despot) ، الذي خول له الحق في ارتداء العباءة الأرجوانية ولكأنه واحد من أفراد البيت الامبراطوري . وبعد قليل طالب أنصار باليولوغوس بأن يتوج سيدهم شريكاً في التاج مع الطفل يوحنا ، واستجاب الرأي العام لهذا المطلب . وفي يوم الحفل جاهر الأنصار بأن السن والعقل هما الأرجح على حق الوراثة لحكومة في المنفى تسعى وراء هدف نبيل هو استرداد الأرض المغتصبة من الصليبيين . وقد تم لهم ما أرادوا ، ففي لحظات أعلن تأجيل تنصيب الطفل يوحنا واكتفى بمنحه إكليلاً حملاً وسار به في الصفوف ليزف ميخائيل باليولوغوس إلى العرش ، وتلقى باليولوغوس التاج من أيدي البيتريرك ارسنيوس في كاتدرائية نيقيا . غير أن ارسنيوس — رجل الله — كان على وشك الانفجار غضباً لهذا التبديل الخبيث الذي دبر له أنصار باليولوغوس في يوم التنصيب ، ولكن فرقة المرتزقة الفرنجية من حول الامبراطور راحوا يلوحون بسيوفهم ، كما وأن الطفل يوحنا سارع في إعطاء الإشارة للبيتريرك بموافقته على الأمر الواقع ، وكان يوحنا يرتعد خوفاً عندما علت بعض الأصوات في قلب الكاتدرائية مرددة بأن مصير

الأمة يجب ألا يبقى معلماً على عنق طفل هزبل .

وتم تنويع باليولوغوس على يد البطريرك أرمستوس رغم كل شيء . وقام الامبراطور الجديد بتوزيع الهدايا والهباء على أتباعه الذين وقفوا بجواره حتى حصل على التاج البيزنطي .

قام ميخائيل باليولوغوس بخلق عدة مناصب شرقية جديدة في الامبراطورية ووزعها بسخاء على أهله وأصدقائه . فأنعم بلقب « أمير » على واحد من إخوته ، وبلقب سيامستوكراتور على اثنين آخرين من أفراد عائلته . كما أنه أنعم على ضابط مرموق في الجيش هو الكسيوس ستراتيجويولوس بلقب « قيصر » . ولم يلبث هذا الأخير أن كرم اللقب الذي أنعم عليه فحقق انجازاً فريداً ألا وهو استرداد مدينة القسطنطينة :

كان ستراتيجويولوس مكلفاً من قبل باليولوغوس بشن الحرب ضد حكومة ابيروس الانفصالية ، ولكن قوات ابيروس نجحت في إلحاق الهزيمة بقوات نيقيا ووقع قائدها ستراتيجويولوس في الأسر سنة ١٢٦٠ . ثم وقعت هدنة بين الطرفين البيزنطيين وأطلق سراح ستراتيجويولوس . وفي العام التالي أي في سنة ١٢٦١ كان ستراتيجويولوس يقوم بجولة استطلاعية على رأس فرقة هزيلة من مرتزقة الغرب حول المواقع المجاورة للقسطنطينة . ولشدة دهشته اكتشف أن العاصمة خالية من أي اجراء دفاعي : فقد كان اسطول البندقية ومعه غالبية الجنود الفرثية في حملة لحصار قلعة على إحدى الجزر في جنوبي البحر الأسود . ولم يتردد ستراتيجويولوس في أن يتهبى تلك الفرصة الذهبية ، وقد نجح في دخول مدينة قسطنطين دون عناء يذكر فجر يوم ٢٥ يوليو سنة ١٢٦١ . وفر الامبراطور بلدوين الثاني وأتباعه من العاصمة ، وهكذا فإنه في لحظة من لحظات الحظ السعيد كتب ستراتيجويولوس نهاية الحكم الصليبي للقسطنطينية في يسر مذهل .

ومن المقارقات العجيبة في التاريخ أن بطل الاسترداد هذا كان قد وقع

أسيراً — كما لاحظنا — في أيدي حكومة ابيروس ، ثم أطلق سراحه سنة ١٢٦٠ . والأشد غرابة أن هذا « المخلص » الاسطوري قد شاعت له الأقدار أن يقع مرة أخرى أسيراً في أيدي حكام ابيروس . ولقد عجب المؤرخون المعاصرون من أمر وقدر هذا الرجل ، فراحوا يشبهونه بأبطال التاريخ القديم « الاسري » من أمثال قورش وهانيبال وبومي ..

وصل رسول مجهول الهوية في منتصف الليل إلى بوابة القصر الامبراطوري في بلدة بيمفابوم ، على مقربة من أزميز ، وطلب إيقاف الامبراطور من نومه لأنه يحمل أخباراً هامة للغاية . وقد تولت بولوغيا شقيقة باليولوغوس مهمة إيقاف صاحب الجلالة . وقدم الرسول رسائل من القيصر ستراتيوجيولوس تنبئ بأنه وفرقته المكونة من ٨٠٠ رجلاً قد استردوا العاصمة القسطنطينية من أيدي الصليبيين . ولم يصدق باليولوغوس عينيه ، واحتجز رجال البلاط ذلك الرسول الهام حتى أثبت الأتباء بصدق ما كان يحمله الرسول من قول ورسائل . وجاء رسل آخرون يحملون هذه المرة علامات الانتصار ، وكان من بينها سيف وصولجان الامبراطور الصليبي الحارب بلدوين الثاني وحذاه وقبعته أيضاً .

وعلى التو جمع ميخائيل باليولوغوس مجلس الشيوخ والنبل وكبار رجالات وسط علامات البهجة والانتصار ، وتحدث باليولوغوس إلى أعضاء المجلس قائلاً : « لقد كانت امبراطورية الرومان في قديم الأزمان تمتد لتشمل الأديرياتيك والدجلة وأطراف اثيوبيا . وبعد سقوط الولايات شاعت الأقدار أن تسقط عاصمتنا ذاتها في أيدي المتبريرين الغربيين . وبينما نحن نلهث في المنفى طريدين ، ابتسم الحظ لنا من جديد وشاعت الارادة العلوية أن ترد لنا مدينة قسطنطين العظيم ، ذلك الأكروبول المقدس للدين والحكم . وإن مهمتنا الآن هي أن نحافظ على هذه المدينة بدرعنا وسيفنا حتى يكون هذا منطلقاً لانتصارات مقبلة » .

لم يفقد باليولوغوس وشعب ثقيبا الوقت ، إذ كان الجميع في لهفة زائدة

لدخول مدينة قسطنطين المستردة . وقد تم هذا الدخول المشهود بعد عشرين يوم فقط (في ١٥ أغسطس ١٢٦١) من وقوعها في أيدي البطل ستراتيغويولوس . وعندما اقترب الموكب الأمبراطوري من المدينة فتحت له البوابة الذهبية على مصراعها ، وترجل باليولوغوس ودخل المدينة في وقار مهيب تتقدمه أيقونة العذراء مريم لكي ترشد خطاه إلى رحاب أياصوفيا .

غير أن البيزنطيين العائدين إلى مدينتهم قد وجودها خراباً تنعي من بناها ، فلقد تلوث القصر الأمبراطوري بوسخ الصليبيين ومخلفاتهم ، وتهدمت أحلى طرقات المدينة وحوالياتها ، وأكلت السنة النيران كثيراً من بيوت العبادة وآيات الفن الوثني ، وجردت المياني من نقائسها وزخارفها . أما عن التجارة فقد كسدت في القسطنطينية ، وتناقص عدد السكان فيها مع تناقص مواردها . ولذا فإن أول عمل أقدم عليه باليولوغوس كان يتمثل في إعادة النبلاء إلى قصور آبائهم ، وإعادة الأراضي إلى ورثتها من البيزنطيين ، كما أنه جلب بعض السكان من الولايات لتعمير العاصمة . وأبقى الأمبراطور على الجاليات اللاتينية من بيازنة وجنوية وبنادقة في العاصمة بعد أن أقسموا له بحسن الولاء والطاعة .

ثم أعد باليولوغوس لإعادة التتويج رسمياً في أيا صوفيا ، وتناسى في هذه المناسبة الخطيرة حقوق شريكه في التاج وتلميذه يوحنا لاسكارس ، وأعيد تتويج باليولوغوس وزوجه تيودوره في سبتمبر ١٢٦١ . ولكي يحتفظ بالتاج لأسرته ، عمد باليولوغوس بعد قليل إلى ابتكار وسيلة يشوبها يوحنا لاسكارس لكي يحرمه من الحكم ، وكانت هذه الوسيلة الجديدة تتمثل في تقريب قضيب من الحديد الملتهب من عيني يوحنا لقتل عصب الإبصار . وبعد هذه العملية « الوحشية » — وهي تقليد بيزنطي قديم — نقل يوحنا إلى قلعة نائية حيث أمضى بقية عمره في الظلام .

كان البطريرك أرسينيوس قد استقال من منصبه بسبب المعاملة الوحشية

التي لقيها يوحنا الطفل على أيدي ميخائيل باليولوغوس . ولكن الأمبراطور راح يستعطف البطريرك المستقيل موضحاً له أن أعباء الدولة هي التي أملت عليه هذا الموقف ، ووعد أن يحيط يوحنا بالعطف اللازم . وبعد أن سملت عيننا يوحنا على هذه المشكلة ، أعلن البطريرك أرسنيوس غضبه الشديد ووقف وقفة حنظلها له التاريخ ، فلقد جمع جميعاً من الأساقفة وأنزل باعنة الحرمان على رأس باليولوغوس. وصفق البيزنطيون لهذا البطريرك الجسور ، وفزع باليولوغوس أمام خطورة الموقف ، وراح يطرق أبواب أيا صوفيا وهو في رداء التوبة والندم يطلب الصفح والغفران . ولكن أرسنيوس رفض الاستجابة للامبراطور « لأن جرماً كبيراً يستوجب توبة من حجم ذلك الجرم » على حد تعبير البطريرك . وهنا صاح باليولوغوس في وجه أرسنيوس: « أو ترغب يا أيها البطريرك في أن أعزل حكم الأمبراطورية ؟ » ، وتظاهر الأمبراطور بمد يده وكأنه يسلم السيف الأمبراطوري للبطريرك . غير أن البطريرك لاحظ أن باليولوغوس بمد يده بالسيف ثم يؤخرها ، فتركه البطريرك حيث كان جائياً وانسحب ، وبقي باليولوغوس في مكانه جائياً على ركبته غارقاً في دموع الندم⁽¹⁸⁾ .

وبعد أن أفاق باليولوغوس من مدلته قرر أن ينتقم من أرسنيوس ، فدبر له مكيدة وعزله من منصبه ثم أرسل به إلى المنفى في جزائر پروبوتنس ، كما سيأتي في فصل لاحق .

(18) Pachymer's, op. cit., I, 4, c. 4; Gregoras, Nicephorus, Historia (Bonn ed.), V, 1, B.

الفصل الثالث

تحركات المغول في عصر باليولوغوس بیزنطة ومصر المملوكية

« سر من توران إلى إيران مظفراً ، واعل باسمك إلى الشمس
الساطعة ، وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه ، في الكليات
والجزئيات ، وخص كل من يطيع أوامرک ويحتمل نواهيک ،
في الرقعة الممتدة من جيجون حتى أقاصي بلاد مصر ، بلطفک
وأنواع عطفک . أما من يعصيك : فأغرقه في المذلة والمهانة مع
نسائه وأبنائه وأقاربه ، وكل ما يتعلق به ^(١٩) ..
(منكوخان)

° ° °

في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد أعلنت الأسرة الحاكمة لشمال الصين
وهي أسرة مانكوكن الحرب على قبيلة منغو — تاتا أو المغول — ثم ما لبث آل
كن أن عقدوا صلحاً مع الزعيم المغولي أولو بوتزيلي (Aolo-botzile) :
وذلك لحاجة الصين إلى معونة المغول في الكفاح ضد التتار الذين كانوا يقيمون

(١٩) يرى بعض الدارسين في هذا الاسم أصلاً للكلمة الفارسية ، أولج قزيرج أو الوزير الأعظم .

على بحيرة بويرنور (Buir-Nor) . وفي ذلك الصراع المضطرب ظهر نجم زعيم يدعى تموكين الذي كان يقود جماعة من خير محاربي الأستبس الآسيوي . وبعد أن انتصر تموكين على التتار أنعم عليه وانج — خان زعيم شرقي منغوليا بلقب القاخان Qaghan .

هذا وقد ادعى تموكين أنه ينتسب إلى الزعيم الأكبر للمغول قوتولا — قاخان (Qutula-Qaghan) . ووفقاً للروايات المغولية الملحمية بعنوان « يوان — شاو — يي — شي » (Yüan-ch'ao-pi-shi) أي « التاريخ السري لأسرة يوان » ، نجد أن تموكين قد أنشأ عشرة دواوين ليلاطه على الوجه الآتي :

- ١ — أربعة رجال للإشراف على رماة الدروع والقوس (كورشي) .
- ٢ — ثلاثة رجال للإشراف على الطعام والشراب (يوكاويل — باوركي) .
- ٣ — رجل للإشراف على مراعي الأغنام (أكتاكي) .
- ٤ — رجل للإشراف على إعداد العربات (يو — تكي) .
- ٥ — رجل للإشراف على خدم القصر (كريي) (٢٠) .
- ٦ — أربعة رجال للإشراف على حمل السيوف ، ويرأسهم شقيق تموكين المدعو جوكاي — كسار (Juchi-Qasar) .
- ٧ — رجلان للإشراف على تدريب الخيول (أكتاكي) ، ويرأسهما شقيق آخر لتموكين هو بلقو — تاي .
- ٨ — ثلاثة رجال للإشراف على مراعي الخيول .
- ٩ — أربعة رجال للإشراف على الرسائل المرسلة « بالرمح » (كولا — أويرا) .
- ١٠ — نبيلان للإشراف على الاجتماعات الملكية ولحراسة شخص الخان الأكبر (كشيكتين) .

(٢٠) أعطى بعض الكتاب عندما نقلوا هذه الكلمة إلى كلمة « حاجب » .

هذا وقد تطور نظام حراسة خان المغول سنة ١٢٠٣ م بعد أن سيطر تموكين على كل منغوليا الشرقية، فكان يحرسه سبعون من الرجال أثناء النهار، وثمانون أثناء الليل. هذا إلى جانب كتبية مؤلفة من ألف مسن «الشجعان» (بهادر). وفي سنة ١٢٠٦ م نجح تموكين في بسط نفوذه على بقية أجزاء منغوليا، واتخذ له علماً ذا تسعة أذنان خيل بيض، علامة على الرفعة والشرف. واعتلى تموكين العرش المغولي ملكاً وتلقب بلقب جنكيزخان. هذا عن شخص الخان الأكبر ورجال حرسه الذين كانوا يختارون في عناية فائقة من بين أبناء القواد ووجهاء المغول. أما عن الشعب المغولي فلا نكاد نعتز في تاريخ المغول عن اهتمام يذكر بهم، وإنما تهتم المصادر في الدرجة الأولى بما أسداه الخان الأكبر على حلفائه من نعم، وعلى الأرستقراطية المغولية من منن. وعلى هذا لم يكن الشعب المغولي أكثر من أداة طيعة في أيدي حرس جنكيزخان وجهاز حكومته. أما عن أمراء المغول ولقب الواحد منهم «نويون» فهم قمة النبالة المغولية، وقد شملت هذه الطبقة إخوة الخان الأكبر وأبنائهم. يلي هذا طبقة النبالة العسكرية، وكان لقب الواحد منهم «تركخان». وللأمراء العسكر امتيازات طائلة: فهم لا يؤدون الضريبة، وما يقع في أيديهم من غنائم يصبح حقاً لهم، ولهم حق دخول القصر الملكي دون إذن مسبق، كما أن لهم الحق في ارتكاب ثمانية جرائم دون أن يحاسبوا عليها، وإنما هم يستندعون للحساب عند ارتكابهم للجرم التاسع. وكانت قوات المغول تقسم إلى جيوش تعداد كل منها عشرة آلاف، لكل قائد أعلى. ونجد على عهد جنكيزخان ثلاثة من هؤلاء القواد: الأول ولقبه «موكول» (Muquli) يقود مسيرة الجيش أو الجناح الشرقي، والثاني ولقبه «بوقورجي» (Bughurji) ويقود ميمنة الجيش أو الجناح الغربي، والثالث ولقبه «نابا» (Naya) ويتولى قيادة وسط الجيش. وقد حرمت القواعد المغولية على الجند الانتقال من فرقة إلى أخرى، وكانت العقوبة لهذه المخالفة هي الإعدام على مرأى من الجند.

أدخل جنكيزخان نظام الكتابة الأويغورية (Uighur) في دواوين

حكومته سنة ١٢٠٦ م ، وقد وكل الإشراف على هذه المهمة إلى موظف هام بلقب « تاشاتون » (Tashatun) ، الذي كان له شرف تعليم أبناء الخان القراءة والكتابة باللسان الأويغوري . كذلك كان لهذا الموظف أن يشرف على « ختم » الخان الأكبر « الأحمر والأزرق » . وكان « الختم » في الأويغورية يعرف باسم « التمغة » ، ويستخدم أحمرهما في غالب المناسبات ، بينما اقتصر استعمال « الأزرق » على كبريات المناسبات ، من قبيل ذلك عندما يوجه الخان الأكبر رسائل إلى المقرين إليه من الأسرة المالكة .

ويدخل الكتابة إلى المغول تم وضع القانون العرفي لأمتهم ، وعرف هذا باسم « الياسا » (Yasa) ، وأضيفت إليه أقوال وأحكام جنكيزخان المعروفة باسم « بليك » (Bilik) . وقد صارت هذه المصدر الأول في تصريف أمور المغول على عهد خلفاء جنكيزخان . وأول من برز في المدرسة الجنكيزخانية الجديدة شاب يدعى شيكي - كوتوكو - نوبون ، وهو من أصل تشاري ، كانت زوج الخان الأكبر قد تبنته منذ طفولته الباكرة . وقد فوضه جنكيزخان بعد أن أتم تعليمه في « إصدار الأحكام وحق الإعدام » ، وكلفه أيضا بأن يحفظ أحكامه مدونة في « لوحات سوداء حتى لا تمسها يد المخربين » . كذلك اختار جنكيزخان كاهنا أكبر « بيكي » (Biki) ^(٢١) للمغول من قبيلة يارين ، وزوده بنصحه بأن « يمتطي جواداً أبيض ، ويرتدي رداء ناصع البياض ، وأن يجعل مجلسه في الأعالي من الأماكن ، وأن يتتبع مسار سني الخير وأقمارها ، وبهذه الحكمة يعلم الناس فيتعبدون » ^(٢٢) :

وبطبيعة الحال لم يكن لأحد في الامبراطورية المغولية كلمة إلا لجنكيزخان فحسب . على أنه في سنة ١٢٠٧ م منح جنكيزخان إلى ابنه الأكبر جيوكاي (Juchi) « أراضي وشعوب الغابات » ، وهي تلك الأراضي الواقعة بين نهري

(٢١) يخطئ رشيد الدين فضل الله الهمداني ، جامع التواريخ ، فيقول أن لفظة « بيكي » هذه أساء لعلم .
(22) W. Barthold, Turkestan down to the Mongol invasion, p. 391.

سلنجا وينسي ، وترجع شعوب تلك المنطقة إلى جنس يعرف باسم « الشبير » (Shibir) . وكان العرف عند المغول أن تؤول المشكلات الخاصة بالأب إلى أصغر أبنائه ، ويتدرج قرب وبعد الأراضي الممنوحة للأبناء وفقاً لأعمارهم بمعنى أن يحصل الأصغر سناً على الأراضي الأكثر قرباً والعكس صحيح . وعلى هذا الأساس كان نصيب جيوكاي الابن الأكبر لجنكيزخان في أقاصي الشمال الغربي من الأراضي التي فتحها المغول من أيدي التتار « تلك البقاع القصية التي تعرفها حوافر خيل التتار » .

في سنة ١٢١٥ م هجم جنكيزخان بحفاهه على الصين ومزق أعداءه شر تمزيق ، ثم دخل بكين فاتحاً . وقد كان لهذا الانتصار المغولي على الصين أبعاد الأثر في ازدياد شهرة جنكيزخان في الشرق والغرب على حد سواء . وسارع الشاه محمد الخوارزمي ، سيد تركستان وإيران والعراق ، الذي كان يحلم هو أيضا بدخول بكين ، بإيقاد سفارة برئاسة بهاء الدين رازي إلى جنكيزخان . ووصلت السفارة إلى بكين حيث كان الخان الأكبر يحتفل بانتصاره المهول : ووجدت البعثة ولي العهد الصيني ، القان — خان ، أسيراً في أيدي المغول ، وبدت لهم في كل بقعة علامات الخراب والدمار ، وكانت عظام القتلى تؤلف تلالاً لا تحصى ، وأما الأرض فكانت مكسوة بطبقة من شحوم البشر . وكانت عفونة جثث الضحايا قد لوثت الأجواء بالآوبئة ، التي راح ضحيتها واحد من رجال السفارة . وعند بوابة بكين كانت تتكوم تلال رهيبه من العظام ، وقيل للسفراء أنه عند سقوط المدينة ألقت ستون ألفاً من بناتها بأنفسهن من على الأسوار هروباً إلى الموت من يد المغول !

استقبل جنكيزخان أعضاء السفارة في بكين وطلب منهم إبلاغ نحياته إلى الشاه الخوارزمي ، وأكد لهم اعترافه بالشاه سيداً على الغرب ، كما وأنه وافق على أن يعوب التجار من رعايا العاهلين في امبراطوريتي الشرق والغرب دون قيود . وقد رد جنكيزخان بسفارة مماثلة إلى الشاه ، وحملها هدايا قيمة من

الذهب ونفائس الصين . وقد نجم عن تبادل هذه السفارات بين الشرق والغرب توقيع اتفاق سلام بين العاهلين .

غير أن حادثاً خطيراً حطم الآمال المعقودة على هذا السلام : فلقد ارتاب الشاه الخوارزمي في أمر قافلة تجارية أرسلها جتكيذ خان إلى بلاد الشاه ، فقبض على أفرادها وأعدمهم ، ثم استولى على الكنوز والبضائع التي كانت معهم ، ويقدر عدد هؤلاء التجار بأربعمائة وخمسين ، ويقدر ما كان معهم بخمسمائة ناقة محملة بالحرير الصينية والذهب والفضة . وقد أفاض في ذكر هذا الحادث الأشأم الكاتب علاء الدين عطا ملك الجويني في كتابه « تاريخ قاهر العالم » (٢٣) :

يقول الجويني إنه عندما وصلت القافلة إلى مدينة أوتار ، كان حاكمها واحداً من أنسباء أم السلطان — تركن خاتون — وهو أبنا لشوك (٢٤) ولقبه غاير — خان أي الخان القدير . وكان من بين أعضاء القافلة هندي تصادف أنه كان على معرفة سابقة بالحاكم ، ولذا فإن هذا الهندي راح يخاطب الحاكم بألفة زائدة عن الحد فناده باسمه مجرداً من الألقاب ، مطمئناً إلى أنه موفد من قبل

(٢٣) ولد علاء الدين عطا ملك الجويني سنة ١٢٢٦ م ، وقد التحق بخدمة المغول منذ الصغر فصار من عمال الديوان للأمير أرغون حاكم إيران من قبل المغول . وعندما قدم هولوكو إلى إيران التحق الجويني بخدمته وصحبه في حادثة بغداد ، ثم ولى حاكماً على العراق في عهد هولوكو وابنه أباتا خان إلى أن توفي . وقد بدأ الجويني في كتابه تاريخه « قاهر العالم » سنة ١٢٥٢ م في بلدة قره قورم . ويقرر الكاتب أن نسبه يرجع إلى أسرة جويني الخراسانية من شمال غربي تيسابور . وآل جويني كانوا يحتلون مناصب كبرى في ظل حكم السلاجقة والخوارزميين ، وهم يدعون النسب إلى الفضل ابن الربيع الذي خلف البرامكة في خدمة هارون الرشيد . وقد قام الجويني بزيارة بلاط خان المغول متكو سنة ١٢٥٣ م . وتعتمد هنا على ترجمة إنجليزية للنص الفارسي ، وهذه الترجمة هي :
Ata-Malik Juvaini, The History of the World Conqueror, translated from the text of Mirza Muhammed Qazvini into English by John Andrew Boyle, vol. 1, pp. 71 ff.

(٢٤) تصغير لكلمة أيتال التركية .

الخان المغولي الأكبر . ولقد تضايق اينالشوك من هذا المسلك الأرعن ، وفي نفس الوقت حدثته نفسه بالصيد الثمين الذي كان يحمله هؤلاء القوم ، فألقى القبض عليهم وأرسل رسولا إلى الشاه ليعلمه بأمرهم . وقد أمر السلطان — دون روية — بإعدام هؤلاء التجار والاستيلاء على بضائعهم وكنوزهم . وهنا يقرر الجويني أن الشاه بفعله هذا قد « عرض حياته للهلاك ، وعرى أفراده ليقص جناحها وهي بعد زواغب » (٢٥) .

غير أن واحداً من هؤلاء التجار كان قد نجح في الفرار من السجن قبل وصول أمر الشاه ، ويمم كالريح قبالة بلاط الخان المغولي الأكبر ، وأبلغه بالأمر .

انقلب عقل جنكيزخان غضباً ، وفارقه هدوءه ، وتملكته عاصفة من الغضب ، فألقت برمالها في عيني البصر والرحمة ، وتأججت نار الغيظ فجفت الدموع من عينيه ، ولم يعد يكفي لربها سوى سفك الدم . وفي نوبته المحمومة تلك صعد الخان منفرداً إلى قمة الجبل عاري الرأس ، وولى وجهه شطر الأرض من تحت قدميه ومكث أياماً ثلاثة بلبها يتلو صلاته متمتما « إلهي بالقوة فأنتقم » . « أمن يدفن جلدرا جافاً ينجي منه ثماراً ؟ » ، هكذا يتساءل الجويني (٢٦) .

على أن الرواية المغولية ، وفقاً لما نطالعها في « أعمال بعثة بكين » (٢٧) ، تقرر أن السلطات الخوارزمية قتلت السفير المغولي الذي كان على رأس سفارة جنكيزخان إلى الشاه محمد ، وقتل معه أيضاً تسع وتسعون آخرون (٢٨) . ويقال أن جنكيزخان قد أرسل ثلاثة من سفرائه إلى الشاه للاحتجاج على غدره برجال المغول ولطلب تسليمهم اينالشوك . ولكن الشاه لم يكتف برفض الطلب

(٢٥) الجويني ، نفس المصدر : « ليت من يملك عقلاً يتدبر عزم الأمور » . ص ٨٠ .

(26) Juwaini, op. cit., p.81.

(27) Works of the Peking Mission, IV, 143.

(28) See W. Barthold, op. cit., p. 400; conf. A. Muller, Der Islam, ii, 205.

وإنما أمر بقتل السفير وبجز لحية صاحبيه .

وهناك من قائل بأن الخليفة العباسي الناصر قد استنجد بالمغول ضد الشاه محمد . ولكن هذا القول لا يعدو أن يكون مجرد تردد لمزاج أهل العصر وتندرهم وهذا لا يختلف كثيراً عن تلك الأقاويل التي أشيعت في غرب أوروبا أثناء الصراع بين فردريك الثاني والبابا ، فقد قيل وقتها ان البابا قد استنجد بالمغول ليخلصوه من شر فردريك .

ويجدر بنا أن نقرر أنه حتى لو لم يقع هذا الحادث — حادث قتل التجار المغول — فإن جنكيزخان كان سيجد مبرراً آخر للحرب ، وذلك للقضاء على امبراطورية الخوارزميين ، خاصة بعد أن أطلعه العيون بأن الامبراطورية تمر بمرحلة تدهور واضطراب شديدين . وكان الشاه على خلاف وعداوة مع كشلوك سيد كشغارية ، الذي اضطهد سكان البلاد المسلمين اضطهاداً بالغاً ، كما نطالع عند الجويني⁽²⁹⁾ .

أطلق جنكيزخان جيوشه بقيادة جيجي نويون قبالة الغرب ، وسقطت كشغر في أيدي المغول ، وقبض على كشلوك وقطعت رأسه . وتوالى سقوط مدن شرقي تركستان الواحدة بعد الأخرى في أيدي المغول . ويقرر الجويني أن المغول أظهروا تسامحاً دينياً مع الأهلين ، « فعاد الآذان والتكبير بعد هلاك كشلوك :

إن أشاع الله نوراً في شمعة
فلان من يطفئها يحرق لحيته⁽³⁰⁾

(29) Juvaini, I, 50-51, pp. 65-66 :

« دخل كشلوك إلى كوتان واستبد بها وبأهلها ... وغطت المآذن من الدعاة الصالحين وأغلقت المدارس التي كانت تعلم أصول الدين ... وقام كشلوك بصلب بعض الأئمة على أبواب مدارسهم ... لقد ساد الشر والارهاب على رقاب العباد ، الذين ابتهلوا إلى السماء بأن ينتقم الله من هذا الفرعون الجديد ويحرق الأرض من ظلمه ... »

(30) Juvaini, pp. 67-68.

بعد انتصار المغول على كشلوك قرر جنكيزخان أن يخوض الحرب ضد
الشاه محمد الخوارزمي بنفسه . وتجمعت جيوشه مع جيوش حلفاءه عند بلدة
كوالي (Qayaligh) . وحلفاء جنكيزخان في هذه الحرب هم : سقناق —
تاجين سيد الألقاق (الألبان) وبورشيق سيد الأويغور ثم قزلون أرسلان خان .
وبينما يقدر رشيد الدين الهمداني عدد جيش جنكيزخان بحوالي ١٢٩, ٠٠٠
مقاتلاً ، يقدره الجويني بحوالي ٦٠٠ ألفاً . ويقدر برتولد عدد جند المغول
في هذه الحرب بمائتين ألفاً على أكثر تقدير^(٣١) . ويرى دوسون أن عدد
جنود الشاه الخوارزمي كان أكثر بكثير من عدد جند المغول ، ولكن نظراً
لخلاف الشاه مع قواد جيشه وشعبه ، لم يكتب له النصر^(٣٢) . ويقال إن الشاه قد
أمر بنباية الضريبة السنوية المقررة ثلاث مرات ، لأنه شرع في بناء سور كبير
يبلغ طوله ١٢ فرسخاً حول مدينة سمرقند .

وقد حضر بنفسه أثناء إقامة قلعة في هذا السور محاطة بالحنادق ، وفوجيء
الحضور بصوت يردد « إن المغول إن هم قذفوا بأسواطهم في الخندق لطمسوه
جميعاً » . ولقد تطير الشاه ورجال بلاطه شؤماً عند سماع هذه العبارة^(٣٣) .
ويروي الجويني قصة عن محاولة لاغتيال الشاه ، والمعروف أنه كان على خلاف
شديد مع والدته وكبار رجالات جيشه .

على مقربة من مدينة أوتزار قسم جنكيزخان قواته ، فكلف الميسرة وغالبيتها
من الجند الأويغور بمهمة ضرب الحصار حول المدينة . وسير جيشاً آخر بقيادة
ابنه جوكاي على نهر سرداريا . وزحف جيش ثالث قوامه ٥٠٠٠ رجلاً قبالة
بناكات (Banakath) وكوجند ، وقاد جنكيزخان بنفسه جيشاً آخر — يعاونه
ابنه تولوي — نحو بخاري ، بهدف القطع بين الشاه وبين قواته الأخرى .

(31) Barthold, op. cit., loc. cit.

(32) Dohson, Histoire des Mongols, i, 212.

(33) Nasawi, Historia du Sultan Djelal ed-din Mankobirti, texte arabe ed, et
trad. par O. Houdas, p. 24.

سارع حاكم أوترار واسمه بدر الدين أحمد بالاستسلام لجنكيزخان والانضمام إليه ، وقد أطلع الخان الأكبر على أسرار الدولة وخلافات الشاه مع ضباطه ووالدته . ثم سلمت لجنكيزخان مدينة زرنوق دون مقاومة ، وقد أطلق عليها المغول اسم « قتلق — بالين » أي « المدينة المحظوظة » . ثم زحف المغول على بلدة نور ، ففر أهلها مذعورين ، تاركين البلدة لنهب العدو . ووصل جنكيزخان إلى بخاري في فبراير ١٢٢٠ م ، وضرب حولها حصاراً قاسياً . ولما لم تفلح جهود المدافعين عن بخاري ، خرج بدر الدين قاضي — خان على رأس وفد من أهل البلدة يعرضون تسليم مدينتهم للخان الأكبر بشرط الأمان . ورغم هذا فإن المغول نهبوا المدينة وقتلوا الأهليين وانهكوا الحرمات وداسوا المقدسات . غير أن جماعة من علماء البلدة ثاروا لما رأوا من مهانة ، واستشهد منهم عدد كبير ، وهم يقاومون جنود المغول بالأظفار ، ومن بين هؤلاء الأبطال ركن الدين إمام — زاده ، والقاضي صدر الدين خان ، ثم مجد الدين مسعود ، وهو شقيق للوزير نظام الملك (٣٤) . ويروي الجويني أن جنكيزخان قد جمع الأهليين في المصلى واعتلى المنبر وألقى عليهم تهديداً قاسياً ، فقال : « أيها القوم ! أعلموا أنكم لا بد قد اقترفتم إثماً عظيماً ، وكباركم آثامهم أكبر . ولئن سألتكموني للتدليل على صدق قلبي ، فإني أرد عليكم : إني أمثل عقاب الله على الأرض ، فلو أنكم لم ترتكبوا الإثم ما أرسل الله عقاباً مثلي عليكم » (٣٥) .

بعد أن جرد جنكيزخان ورجاله المدينة من أموالها ونقائسها ، أشعل النار فيها . وبعدها زحف المغول من بخاري قبالة سمرقند ، يجرون في مواكبهم أعداداً لا تحصى من الأسرى وراء خيولهم ، ومن انهارت قواه عن السير كان يقتل على التو . ثم ضرب جنكيزخان حصاراً حول سمرقند دام خمسة أيام ، وسقطت المدينة في أيدي المغول ، فدارت فيها المذابح الرهيبة ، ويقدر عدد الضحايا بحوالي سبعين ألفاً . ثم جمع المغول قوات الجند الترك التي كانت تدافع

(34) Nesawi, op. cit., loc. cit.

(35) Juwaini, p. 105.

عن سمرقند وقتلهم جميعاً ، ويقدر عددهم بحوالي ثلاثين ألفاً . وهكذا دمر المغول مدائن تركستان الواحدة بعد الأخرى ، ثم عبروا نهر أموداريا . ولما أن وصلت تلك الأنبياء المروعة إلى الشاه محمد الخوارزمي في نيسابور (١٨ إبريل سنة ١٢٢٠ م) ، بادر بتسليم صندوقين مليئين بالأحجار الثمينة إلى أحد أتباعه المدعو الأمير تاج الدين عمر البستامي ليخبئها في قلعة حصينة على مسيرة ثلاثة أيام من الري . ولكن تلك القلعة المنيعه « أقوى قلاع العالم » - على حد تعبير المعاصرين - سقطت هي الأخرى في أيدي المغول ، وضاع معها الكنز الثمين .

أمام هذه الهزائم المتتالية فرّ الشاه من الري إلى بلدة قزوين ، حيث كان ولده ولده ركن الدين جورشانكي يعسكر على رأس ثلاثين ألفاً من المقاتلين . ولكن هذه القوة لم تكن كافية لصد هجمات المغول ، فهرب الشاه وبعض رجاله إلى قلعة قارون ومنها إلى بغداد . ثم يمم الشاه إلى بحر الخزر وبلغاً إلى جزيرة في هذا البحر على مقربة من بلدة أبا سكون (ربما كانت الجزيرة المعروفة اليوم باسم آشور - آدي) . وفي ملجأه القاسي أصيب الشاه بالتهاب رئوي وتوفي على أثره في سنة ١٢٢١ م . ويقال إنه لم يكن هنالك ما بقي من مال يكتفي لشراء الأكفان للشاه ، فتبرع واحد من خدمه بقميصه للوفاء بهذا الغرض (٣٦) .

وبعد أن سقطت إيران في أيدي جنكيز خان توقف عن الزحف غرباً ليستجم بضع سنوات في البوادي التي فتحها ، وبعدها قصد إلى موطنه الأصلي . وفي سنة ١٢٢٥ م زحف جنكيز خان على مملكة التنكت الواقعة بين الصين الشمالية والجنوبية ، ولكنه توفي قبل سقوط العاصمة المحاصرة ببضعة أيام ، في أغسطس ١٢٢٧ م .

بعد موت جنكيز خان خلفه في الحكم ابنه الثالث أوقطاي واتخذ مقره على ضفاف نهر أورخون . وفي سنة ١٢٤٢ توفي أوقطاي فخلفه أخوه جغتاي .

(36) Nesawi, p. 153.

وفي خلال تلك الفترة عهد إلى الأمير باطو - وهو ابن الأمير جوجي باخضاع بلدان أوروبا الشرقية ، فاجتاح روسيا سنة ١٢٤٠ ، وبولندة سنة ١٢٤١ ، ثم ضرب المجر وحملاشيا ، ثم انقض على البلغار ومزق كيانهم شر تمزيق .

ثم نشبت في بيت جنكيزخان خلافات على الحكم انتهت باعلاء منكوخان أكبر أبناء الأمير طولوي العرش المغولي . وقد أقدم الخان الجديد على قتل أبناء عمومته جميعاً لأنهم تباطأوا في تقديم الولاء والطاعة له في الحين المطلوب . ثم كلف منكوخان أخاه هولاکو بمهاجمة الشرقيين الأوسط والأدنى :

وهولاکو خان هو الابن الرابع لطولوي خان ، الابن الرابع لجنكيزخان ، وأمه هي سيودقوتي بيكي ، ابنة جاكبو أنخي أوتك خان ملك أقوام كرايت . وكان هولاکو خان نساء وسراري كثيرات ، منهن المشهورات الثلاثي وصلن إليه عن أبيه بحكم القانون المغولي (الياسا) ، وأهمهن جميعاً امرأته العظمى دوقوز خاتون من الأصل العريق لقبيلة كرايت ، وهي ابنة أيقو بن أوتك خان ، ولم يكن طولوي خان - والد هولاکو - قد دخل بها . وكانت عادة المغول ولاسيما الأمراء أنه إذا مات أحدهم أصبحت زوجاته ميراثاً لابنته الأكبر (٣٧) .

كانت دوقوز خاتون من أقوام كرايت الذين كانوا مسيحيين في الأصل ، ولذا فإن هولاکو كان يعمل على رعاية المسيحيين وإعزازهم لإرضاء لها (٣٨) .

عهد الخان الأكبر منكوخان (منكوفا آن) إلى أخيه هولاکو بمهاجمة الشرق الأدنى وزوده بالنصح على الوجه الآتي : « سر من توران إلى إيران

(٣٧) رشيد الدين فضل الله الهمداني ، جامع التواريخ ، ج ٢ ص ٩١ - ٩٥ . (نقله إلى العربية محمد صادق تشأت ، محمد موسى هنداي ، فؤاد عبد المعطي الصياد ، راجعه يحيى الخشاب .

(٣٨) من بين زوجات هولاکو الأخريات كورك خاتون ، قوتوي خاتون ، أولجاي خاتون ، وسونجين خاتون . وكان هولاکو أربعة عشر ولداً وسبع بنات .

مظفرآ ، واعل باسمك إلى الشمس الساطعة ، وحافظ على تقاليد جنكيزخان وقوانينه ، في الكليسات والخزائيات ، ونخص كل من يطيع أوامرنا ويتجنب نواهيك ، في الرقعة الممتدة من جيجون حتى أقاصي بلاد مصر – بلطفك وأنواع عطفك وإنعامك . أما من يعصيك ، فأغرقه في المذلة والمهانة مع نسائه وأبنائه وأقاربه ، وكل ما يتعلق به ... وأبدأ بأقليم قهستان في خراسان ، فحرب القلاع والحصون ، ... فإذا فرغت من هذه المهمة ، فتوجه إلى العراق ، وأزل من طريقك اللور والأكراد ، الذين يقطعون الطرق عن سالكها . وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة ، فلا تتعرض له مطلقاً ، أما إذا تكبر وعصى ، فألقه بالآخرين من الهالكين ... وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشئون » (٣٩) .

سار هولاكو على رأس جيشه مصطحباً معه زوجته الكبيرتين دوقوز خاتون وأولجاى خاتون وكذلك ابنه آباقا ويشمون ، فوصلوا إلى حدود المألغ واستقبلوا في حفاوة بالغة ، ومنها إلى تركستان ما وراء النهر فيبادر الأمير مسعود بيك بتقديم فروض الطاعة . وتقدم هولاكو فنزل في سمرقند بمراعي كان كل فأقام له مسعود بيك خيمة منسوجة بالذهب ، حيث أمضى ما يقرب من أربعين يوماً وهو منصرف للشراب^(٤٠) . ثم تحرك إلى حدود كسن وهي في جنوب غربي سمرقند ، فأقبل أمراء خراسان لتقديم الخضوع والهدايا إليه . ومن كسن أرسل هولاكو عدة رسائل إلى الملوك والسلاطين في إيران لمساعدته في القضاء على شأفة جماعة الخشيشية : « بناء على أمر القآن قد عزمنا على تحطيم قلاع الملاحدة وازعاج تلك الطائفة . فإن أسرعتم وساهمتم في تلك الحملة بالجيوش والعدد والآلات ، فسوف تبقى لكم ولاياتكم وجيوشكم ومساكنكم ، ومستحمد لكم موافقكم . أما إذا تهاونتم في امتثال الأوامر وأهملتم ، فإننا حين

(٣٩) رشيد الدين الحمذاني ، ص ٢٣٥ - ٢٣٧ .

(٤٠) نفس المصدر ، ص ٢٣٩ .

تفرغ بقوة الله من أمر الملاحدة ، فإننا لا نقبل غدركم ، ونتوجه إليكم فيجري على ولا يتحكم ومساكنكم ما يكون قد جرى عليهم ^(٤١) . بعد هذا طارد جنود هولاءو جماعة الحشاشين في أرجاء فارس كلها وأعملوا في رقابهم السيوف . وكان أمر الحشاشين قد آل إلى آخر زعمائهم ركن الدين الذي فر إلى حصن ميمون في ناحية الموت ، حيث أقام معه نصير الدين الطوسي ، الرياضي الفلكي الشهير . ونصح له نصير الدين بالاستسلام ، ولكن ركن الدين قتل بينما كان يُحمل إلى معسكر هولاءو (وفي رواية أخرى قتل بأمر منكوشخان) بينما حظي نصير الدين الطوسي برضا هولاءو وعينه منجما للبلاط وعهد إليه في انشاء المرصد الفلكي الكبير في مدينة مراغة بأذربيجان .

بعد هذا أصبح هولاءو على مقربة من أمور الخلافة العباسية في بغداد ، كان قد تعاقب على عرش الخلافة خلفاء مستضعفون هم الظاهر بأمر الله ، المستنصر بالله والمستعصم بالله ، الذي سقطت بغداد في عصره في أيدي هولاءو في ١٧ يناير سنة ١٢٥٨ م الموافق صفر سنة ٦٥٦ هـ :

« لما رأى الخليفة المستعصم أن الأمر قد خرج من يده ، وبعد خراب البصرة خرج (من بغداد) ومعه أبنائه الثلاثة : أبو الفضل عبد الرحمن وأبو العباس أحمد وأبو المناقب مبارك ، وكان معه ثلاثة آلاف من السادات والأئمة والقضاة والأكابر وأعيان المدينة . ثم قابل هولاءو خان ، فلم يبد الملك غضبا قط ، وكلمه بالحسنى ثم قال له بعد ذلك : « مر حتى يضع سكان المدينة أسلحتهم ، ويخرجوا لكي نحصيهم » . فأرسل الخليفة من يتأدي في المدينة ليضع الناس أسلحتهم ، ويخرجوا . فألقى الناس أسلحتهم زمراً زمراً ، وصاروا يخرجون ، فكان المغول يقتلونهم . ثم أمر بأن تقام الخيام للخليفة وأبنائه وأتباعه ببوابة كلواذي في معسكر كيتوبوقا نويان ، ونزلوا فيها ، وعهدوا بمراسمتهم إلى عدد من المغول ، وكان الخليفة ينظر بعين الحقيقة إلى هلاكه ، ويأسف على

(٤١) رشيد الدين الحمصاني ، ص ٢٤٠ .

تركه الحزم » . قال في نفسه ، لقد فاز عدوي إذ رأيته . قد وقعت في الشرك كالطائر الخدر » . وكان بدء القتل العام والنهب في يوم الأربعاء السابع من صفر ، فاندفع الجند مرة واحدة إلى بغداد ، وأخذوا يحرقون الأخضر واليابس ما عدا قليلاً من منازل الرعاة ، وبعض الغرباء .

وفي يوم الجمعة التاسع من صفر دخل هولاكو خان المدينة لمشاهدة قصر الخليفة ، وجلس في الميمنة ، واحتفل بالأمراء . ثم أشار بإحضار الخليفة ، وقال له : « إنك مضيف ونحن الضيوف . فهيا احضر ما يليق بنا » . فظن الخليفة أن هذا الكلام على سبيل الحقيقة ، وكان يرتعد من الخوف ، وبلغ من دهشته أنه لم يعد يعرف مكان مفاتيح الخزائن . فأمر بكسر عدة أقفال ، وأحضر هولاكو ألفي ثوب وعشرة آلاف دينار ونقائس ومرصعات وعدداً مسن الجواهر ، فلم يلتفت هولاكو إليها ومنحها كلها للأمراء والحاضرين ثم قال للخليفة : « إن الأموال التي تملكها على وجه الأرض ظاهرة ، وهي ملك عبيدنا . لكن اذكر ما تملكه من الدفائن . ما هي وأين توجد » . فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب في ساحة القصر ، فحفرُوا الأرض حتى وجدوه . كان مليئاً بالذهب الأحمر ، وكان كله سيائك تزن الواحدة مائة مثقال . وبعد ذلك صدر أمر بإحصاء نساء الخليفة ، « فعدوا سبعمائة زوجة وسرية وألف خادمة » (٤٢) .

(٤٢) رشيد الدين اقمقاني ، ص ٢٩٣ .

ابن خلدون - المعبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم ...
المجلد الثالث القسم الخامس - منشورات دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٨ - ص ١١٠٦ -
١١٠٧ : « ونزل هولاكو بغداد ، وخرج إليه الوزير مؤيد الدين بن الملقني فاستأمن لنفسه ورجع بالأمان إلى المستعصم ، وأنه يبقيه على خلافته كما فعل بملك بلاد الروم . فخرج المستعصم ومعه الفقهاء والأعيان فقبض عليه لوقته ، وقتل جميع من كان معه . ثم قتل المستعصم شذخا بالعمد ووطأ بالاقدام ... وذلك سنة ست وخمسين . وركب إلى بغداد فاستباحها واتصل العيث بها أياماً ، وخرج النساء والصبيان وعلى رؤسهم المصاحف

وفي مساء الأربعاء الرابع عشر من صفر سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) قضى المغول على الخليفة وأولاده وخدمه ، ولم ينج أحد من العباسيين إلا الإبن الأصغر للخليفة الذي أخذته الخاتون أوبخاي زوج هولاءكو فأرسلته إلى مراغة وزوجوه من امرأة مغولية .

ثم استولى هولاءكو على « الجزيرة » وحصن مياقارقين وآمد وروجه ودنيسر ونصيبين وحران ، ثم عبر الفرات وحاصر حلب التي استولى عليها سنة ١٢٥٩ م (٦٥٧ هـ) ، وأباح المغول القتل والسلب سبعة أيام . وفي أثناء القتال كان هولاءكو يشجع جنده بقوله « كما أن اللون الأحمر يكون زينة للنساء ، فكذلك للرجال تكون الدماء الحمراء على وجوههم ولحاهم زينة لهم » (٤٣) .

ثم قصد جمع من أكابر دمشق وأعيانها إلى هولاءكو ومعهم النخف والهدايا ومفاتيح بوابات المدينة ، وأظهروا له الخضوع ، وسلموه المدينة . فأوفد إليهم إليهم كيتويوقا فاستقبله الأهليون وطلبوا الأمان . وهكذا دخل المغول دمشق بلا حصار ولا قتال .

ثم جاءت الأنباء إلى هولاءكو أن الخان الأكبر منكوقا آن قد توفي ، فاستعص وتآلم كثيراً ، ثم ترك الأمر إلى كيتويوقا وسافر من حلب إلى أنخلاط (١٢٥٨ م - ٦٥٨ هـ) .

كان هولاءكو قد أرسل قبل أن يتصرف من الشام ، رسولا مغوليا وبصحبه

والأنواع فداستهم المساكين وماتوا أجمعين . ويقال إن الذي أسمى ذلك اليوم من القتال ألف ألف وستمائة ألف ، واستولوا من قصور الخلافة وذخائرها على ما لا يبلغه الوصف ولا يحصره الضيق والمد ، وأنقبت كتب العلم التي كانت يخراتهم جميعا في دجلة ، وكانت شيئا لا يميز عنه مقابلة في زعمهم بما فعله المسلمون لأول الفتح في كتب الفرس وعلومهم .

(٤٣) رشيد الدين الهمداني ، ص ٣١٧ .

أربعون من الأتباع إلى سلطان مصر يقول : « إن الله تعالى قد رفع شأن جنكيزخان وأسرته ، ومنحنا ممالك الأرض برمتها ، وكل من يتمرّد علينا ، ويعصى أمرنا ، يقضى عايه مع نسائه وأقاربه والمتصلين به ، وبلاده ورعاياه ، كما بلغ ذلك أسماع الجميع . أما صيت جيشنا الذي لا حصر له ، فقد بلغ له ، فقد بلغ الشهرة كقصّة رستم واسفنديار . فإذا كنت مطيعاً كخدم حضرتنا ، فأرسل إلينا الجزية ، وأقدم بنفسك . واطلب الشحنة ، وإلا فكن مستعداً للقتال » (٤٤) .

ولما وصل رسل هولاءكو إلى مصر ، أحضر السلطان المملوكي قطز الأمراء المماليك واستشارهم في الأمر وقال : « لقد توجه هولاءكو خان من توران إلى إيران بجيش جرار ، ولم يكن لأي مخلوق من الخلقاء والسلاطين والملوك طاقة على مقاومته ، واستولى على جميع البلاد ، ثم جاء إلى دمشق . ولو لم يبلغه نعي أخيه ، لألحق مصر بالبلاد الأخرى ، ومع هذا فقد ترك في هذه النواحي كيتوبقا نويان الذي هو كالأسد المحصور ، والتنين القوي في الكمين . وإذا قصد مصر ، فلن يكون لأحد قدرة على مقاومته . فيجب تدبير الأمر قبل فوات الفرصة » (٤٥) .

واستطرد السلطان قطز قائلاً « والحالة هذه ، فإن كافة بلاد ديار بكر وربيعة والشام ممثلة بالمناحات والفضائح ، وأصبحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً يباباً ، وقضى على جميع ما فيها من حرث ونسل فخلت من الأزواج والأبقار والبنور . فلو أننا تقدمنا لقتالهم ، وقمنا بمقاومتهم ، فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد . وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا موطئاً إلا المغرب ، وبيننا وبينه

(٤٤) الحمدي ، ص ٣٠٠ .

(٤٥) نفس المصدر ، ص ٣٣١ .

مسافات بعيدة ^(٤٦) . فأجاب ناصر الدين قيسري « ليس هناك مصلحة أيضا في مصالحتهم إذ أنه لا يوثق بعهودهم » . وقال أيضا بقية الأمراء : « ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم فمر بما يقتضيه رأيك » . عندئذ قال قطز : « إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعا إلى القتال . فإذا ظفروا فهو المراد ، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق ^(٤٧) » . ثم أمر قطز بصلب رسل المغول بالليل . وقد داهم قطز الجيش الذي كان كيتوبوقا قد أرسله إلى غزة بقيادة الأمير بايدر وطارده حتى نهر العاصي . ودارت المعركة الفاصلة بين المماليك والمغول في عين جالوت بفلسطين ، وقاتل المماليك قتالا مستميتا . ولقد أعطى قطز المثل الأعلى في القروسية والشجاعة ، فعلى صيحاته « وإسلاماه وإسلاماه » ألقى المماليك بكل ثقلهم في قتال العدو ، فأوقعوا بالمغول هزيمة كاملة ، وقتل قائدهم كيتوبوقا في المعركة (١٢٦٠ م) . وهكذا تبددت الأسطورة القائلة بأن المغول قوم لا يهزمون . وكانت عبارة قطز إلى كيتوبوقا قبل أن يأمر بقطع عنقه : « لا تفخر بفرسان توران ، فإنهم يزاولون أعدائهم بالمكر واللداع لا بالرجولة والشهامة مثل رستم بن داستان ^(٤٨) » .

وبعد معركة عين جالوت تخلص الظاهر بيبرس البندقداري من السلطان قطز واعتلى الحكم في مصر سلطانا . وكان هدف بيبرس الأول أن يتصدى للمغول الذين كونوا أسرة حاكمة في فارس عرفت باسم الایلخانات أو الهولاكيين . ومن أجل هذا الغرض خطط بيبرس لتوطيد علاقاته مع المغول القيشاق الذين كانوا قد استقروا في وادي الفولجا وعرفوا بمغول « القرن الذهبي » . وقد اعتنق زعيمهم الخان بركة الإسلام . ولذا فإن السلطان بيبرس أوفد سفارة ودية إلى الخان بركة ^(٤٩) عن طريق القسطنطينية فالقرم ثم الفولجا . وقد استجاب

(٤٦) الهذلي ، ص ٣١٢ - ٣١٣ .

(٤٧) الهذلي ، ص ٣١٣ .

(٤٨) الهذلي ، ص ٣١٥ .

(٤٩) ورد ذكر هذه السفارة عند ابن الفرات والنويري .

الخنان بركة لهذه المبادرة المصرية فرد بدوره بسفارة ودية إلى القاهرة سنة ١٢٦٣ م . والمعروف أن الخنان بركة كان على عداء شديد مع بني عمومته ايلخانات فارس ؛ وهؤلاء كانوا الأعداء الألداء للمماليك في مصر . ولذا فليس غريباً أن نعلم أن اسم الخنان بركة كان يذكر في صلاة الجمعة في المساجد بعد اسم السلطان في كل من القاهرة والقدس ومكة والمدينة ، كما أن بيبرس قد تزوج من ابنة الخنان بركة (٥٠) .

تطلبت تلك العلاقات الوثيقة بين تبار القرن الذهبي وبين مصر المملوكية أن تقوم علاقات من المودة وحسن التفاهم بين السلطان بيبرس والأميراطورية البيزنطية المستردة . ومن هنا جاءت الاتصالات الدبلوماسية بين بيبرس وميخائيل الثامن پاليولوجوس . وكانت هذه العلاقات الحسنة أمراً طبيعياً بسبب ما كان يحمله كل من بيبرس وميخائيل الثامن من كراهية شديدة وعداوة صريحة للصليبيين في الشام . ولكي يبرهن ميخائيل الثامن لباليولوجوس على صدق نواياه تجاه مصر المملوكية أمر بإعادة بناء مسجد القسطنطينية الذي كان الصليبيون قد دمروه عند غزوهم للمدينة سنة ١٢٠٤ م .

هذا وكانت غزوات المغول للشرق الأدنى قد قضت على النفوذ السياسي السياسي للأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى ، فقد ألحق المغول هزيمة ساحقة بالسلاجقة الروم في موضع يسمى كوسه داغ ، واضطر سلطان الروم في قونية وهو غياث الدين كيخسرو ، إلى الاعتراف بتبعيته وولاده إلى خانات المغول وفأثبهم الأمير بايجو نويان (٥١) .

وما من شك في أن ميخائيل الثامن پاليولوجوس كان يشعر بالارتياح لتحطيم المغول لقوة السلاجقة الروم في قونية ، ولكنه في نفس الوقت كان

(50) Stanley Lane Poole, History of Egypt in the Middle Ages, pp. 265-266.

(51) رشيد الدين الحماني ، سس ٢٦٠ - ٢٦١ .

يخشى أن ينزل به جند هولوكو نفس المصير الذي حل بسلاطين السلاجقة . ونحن نطالع في « تاريخ » الهمداني أن هولوكو عندما أرسل بايجونويان إلى آسيا الصغرى أمره بالآتي : « يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الولاية ، حتى شاطئ البحر من يد أبناء الفرنج ومن الكفار » . والمقصود هنا بالفرنج الصليبيين بطبيعة الحال ، أما عن الكفار فيظن كاترمير أنها تعني « الأرمن والاغريق » (٥٢) .

ولذلك فإن ميخائيل الثامن قد سعى إلى طلب مودة ورضى هولوكو انتقاء لشره ، ولعل هذا التقارب يفسر السر وراء احتجاز سقراء مصر المملوكية إلى القسطنطينية لبعض الوقت (١٢٦٥ م) . ولعل هذا التقارب بين ميخائيل الثامن ميخائيل الثامن وهولوكو هو الذي حفز بركة خان تاتار القرن الذهبي إلى إعلان الحرب على بيزنطة ، تلك الحرب التي شارك فيها القيصر البلغاري قسطنطين تلك مع جند بركة الذين كانوا تحت إمرة نوجاي . ولقد نجح تاتار القرن الذهبي والبلغار في إلحاق الهزيمة بجيش ميخائيل الثامن . وبعدها اضطر ميخائيل الثامن إلى التخلي عن صداقته مع هولوكو وإيلخانات فارس ، وراح يتوودد إلى المماليك في مصر وأنسابهم تاتار القبشاق أو القرن الذهبي . ولكي يوثق ميخائيل الثامن من علاقاته مع تاتار القرن الذهبي زوج قائدهم نوجان من إحدى بناته ، وإن كانت ابنة غير شرعية تلك التي زفت إلى توجان ! وهكذا توثقت العلاقات بين ميخائيل الثامن ومصر المملوكية ، وبخاصة على عهد السلطان قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، إذ عقد الطرفان معاهدة ودية وتجارية سنة ١٢٨١ ، وردت أخبارها عند القلقشندي في وثيقتين هامتين (٥٣) .

(52) Etienne, Marc Quatremere, Histoire des Mongols de la Perse, I, 96.

(٥٣) صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، أبو العباس محمد بن علي القلقشندي (٨٢١ = ١٤١٨ م) ، تراثنا ، ج ١٤ ، ص ص ٧٢ - ٧٨ ؛ فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الاسلام في كتابة نسخ من دواوينهم .

الوثيقة الأولى موجهة من ميخائيل الثامن إلى السلطان قلاوون :

« إذ قد أراد السلطان العظيم ، النسيب ، العالي ، العزيز ، الكبير الجنس ، الملك ، المنصور ، سيف الدين (قلاوون) صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، أن يكون بينه وبين مملكتي محبة — فمملكتي تؤثر ذلك ، وتختار أن يكون بينها وبين عز سلطانه محبة . ولهذا وجب أن يتوسط هذا الأمر بين واتفاق : لتدوم المحبة التي بهذه الصورة فيما بين مملكتي وعز سلطانه ثابتة بلا تشويش . فمملكتي هذا اليوم ، وهو يوم الخميس الثامن من شهر آيار من التاريخ (الرومي) التابع لسنة ستة آلاف وسبعمائة وثمانين لآدم — تحلف بأناجيل الله المقدسة ، والصلب المكرم المحيي ، أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم ، النسيب العالي ، العزيز ، الكبير الجنس ، سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، ولولده ولوارث ملك عز سلطانه : محبة مستقيمة ، وصداقة كاملة نقية ، ولا يحرك ملكي أبداً على عز سلطانه حرباً ، ولا على بلاده ولا على قلاعها ، ولا على عساكره ، ولا يتحرك ملكي أبداً على حربيه ، بحيث أن هذا السلطان العظيم ، النسيب ، العالي ، العزيز ، الكبير الجنس ، الملك المنصور ، سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب ، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولده مملكتي الحبيب الكمينوس ، الانجalous ، الدوقس ، البابالوغس — الملك ابرلنك ، ولا يحرك عز سلطانه على مملكتنا حرباً قط ، ولا على بلادنا ، ولا على قلاعنا ، ولا على عسكرنا ، ولا يحرك أحداً آخر أيضاً على حرب مملكتنا . وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانه أيضاً مطلقاً (آمنين لهم) أن يصيروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق ، ويتوجهوا إلى حيث يسرون من عز سلطانه ، وكذلك يعودون إلى عز سلطانه . وأن لا يحصل للتجسار الواردين من بلاد عز سلطانه (ضرر) من بلاد مملكتي ، لا يجذرون من أحد جوراً ولا ظملاً ، بل يكون لهم مباحاً أن يعملوا متاجرهم . ونظير هذا — التجار الواردون إلى بلاد عز سلطانه من أهل بلاد ملكي ، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم ، وليتم كذلك

التجار الواردون من بلاد عز سلطانه إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم . وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانه ، فلا ينال هؤلاء تعويق في بلاد ملكي ، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد القيام بالحق الواجب . وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانه والذين من أهل سوداق إن حضر صحبتهم حمالين وتجار ، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانه بلا عائق ولا مانع . ما خلا إن كانوا نصارى ، لأن شرعنا وترتيب مذهبنا لا يسمح لنا في أمر النصارى بهذا .

وأما إن كان في بلاد عز سلطانه ممالك نصارى : روم وغيرهم من أجناس النصارى ، متمسكون بدين النصارى ، ويحصل لقوم منهم العتق ، فليكن للذين معهم عتائق مباح ومطلق من عز سلطانه ، أن يقدوا في البحر إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد أحد من أهل بلاد عز سلطانه أن يبيع مملوكا نصراانيا هذه صورته لأحد من رسل مملكتي ، أو لتجار وأناس بلاد مملكتي ، أن لا يجد في هذا تعويقا ، بل يشتروا المذكور ويفدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق . وأيضا إن أراد هذا السلطان العظيم النسيب ، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجرا ، وأرادت مملكتي أن ترسل إلى بلاد عز سلطانه بضائع متجرا ، فليكن هذا : وهو إن أراد عز سلطانه أن تكون بضائع متاجرة في بلاد ملكي متجاة من القيام بكل الحقوق ، فليكن أيضا بضائع متاجر مملكتي في بلاد عز سلطانه متجاة مثل ذلك من كل الحقوق ، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة (يقوم) بمثل ذلك . وأيضا أن يطلق عز سلطانه للملكي أن يرسل أناسا من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه ، فيشترى لي خيلا جيادا ويحملونها إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد عز سلطانه شيئا من خيرات بلاد ملكي ، فمملكتي أيضا تطلق لعز سلطانه أن يرسل أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عز سلطانه .

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غربية ، وقد يتفق في بعض الأوقات

أن يعملوا خسارة في بلاد ملكي ، وكذلك يجدون هؤلاء الكرسالية قوما من بلاد عز سلطانه فيعملون لهم خسارة ، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الأقساق في تخوم بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عز سلطانه بمجنجر يسكون من أهل البلاد عز سلطانه ويغرمون . ولهذا فليصر مرسوم من عز سلطانه في كل بلاده أن أحدا من أهل بلاد مملكتي لا يغرم بهذا السبب ولا بمسك ، وإن عرض أن يقول أحد من أهل بلاد عز سلطانه : إنه غرم أو ظلم من أهل بلاد ملكي فليعرف ملكي بذلك . وإن كان الذي وضع الغرامة من أهل بلاد ملكي ، فملكلي يأمر ، وتعاد تلك الخسارة إلى بلاد عز سلطانه . وكذلك إن قال أحد من أهل بلاد مملكتي : إنه ظلم أو غرم من أحد من بلاد عز سلطانه ، يأمر عز سلطانه ، وتعاد الغرامة إلى بلاد ملكي ، وأيضا إذ قد أزمعت المحبة أن نصير بهذه الصورة ، وتكون الصداقة بين مملكتي وعز سلطانه خالصة ، حتى إنه أرسل يقول للملكي على معونة وتجدة في البحر لمصرة العدو المشترك^(٥٤) ، فمملكتي تفوض هذا الأمر إلى اختيار عز سلطانه ، أن يرتب في نسخة اليمين مع بقية الفصول المعينة فيه ، وتأتي الصورة كيف تعين وتجد مملكتي في البحر . وإن كان لا يريد تجدة ومعونة مملكتي ، فمملكتي تسمح بهذا الفصل أن لا يضعه عز سلطانه في نسخة يمينه ، وهذه اليمين منا يحفظ ملكي لعز سلطانه ثابتة غير متزعزعة إن كان هذا السلطان العظيم يحلف لنا يميننا بمثلها ، وأنه يحفظ المحبة لمملكتنا ، ثابتة غير متزعزعة ، والسلام »^(٥٥) .

أما نسخة الاتفاق التي وردت من الأبواب السلطانية عن الملك المنصور قلاوون عن نظير الهدنة المتقدمة فهي تجري كالآتي :

« أقول وأنا فلان : إنه لما رغب حضرة الملك الجليل ، كرميخائيل ،

(٥٤) « العدو المشترك » هنا هو شارلس من آنجو ملك صقلية الفرنسي .

(٥٥) صبح الأعشى ، ٥ ، ٢٩ ص ٧٥ - ٧٨ .

الدوقس ، الأنجالوس ، الكمينيوس ، البالاولوغس ، ضابط مملكة الروم
والقسطنطينية العظمى ، أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله — أن يكون بين مملكته وبين
عز سلطاني ، محبة وصداقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال
السنين والأعوام ، وأكد ذلك يمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن
شهر إيار سنة ستة آلاف وسعمائة وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ،
بمضور رسول عز سلطان ، الأمير ناصر الدين ابن الخزري ، والبطرك الجليل
انباسيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسوله فلان وفلان إلى عز سلطاني
بنسخة اليمين ، ملتصقين أن يتوسط هذا الأمر أيضا يمين واتفاق من عز
سلطاني ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطاني . وتكون ثابتة مستمرة على
الدوام والاستمرار .

فعر سلطاني من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان العظيم ،
سنة ثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام ، يحلف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر
والعلانية وما تخفي الصدور ، وبالقراآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل
عليه ، وهو النبي الكريم ، محمد صلى الله عليه وسلم — على استمرار الصداقة ،
واستقرار المودة النقية ، للملك الجليل كرم ميخائيل ، ضابط مملكة الروم
والقسطنطينية العظمى ، ولولد مملكته الحبيب الكمينيوس الأنجالوس ، الدوقس ،
البالاولوغس ، الملك ايراندروبنفوس ، ولوارثي مملكة ملكه . ولا يحرك عز
سلطاني أبدا على مملكته حربا ، ولا على بلاده ، ولا على قلاعه ، ولا على
عساكره : في بر ولا بحر . ولا يحرك عز سلطاني أحدا آخر على حربه ، بحيث إن
الملك الجليل كرم ميخائيل يحفظ مثل ذلك لعز سلطاني ، وللكي ، وليلاي ،
ولقلاعي ، ولعساكري ، ولولدي السلطان الملك الصالح علاء الدين « علي »
ولوارثي ملكي من أولادي ، ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية ، ولا
يحرك ملكه على عز سلطاني حربا قط ولا على بلادتي ، ولا على قلاعي ، ولا على
عساكري ، ولا على مملكتي ، ولا يحرك أحدا آخر على حرب مملكة عز

سلطاني في البر ولا في البحر ، ولا يساعد أحداً من أعداء عز سلطاني ، ولا أعدائي من سائر الأديان والأجناس ، ولا يوافق على ذلك ، ولا يقسح لهم في العبور إلى مملكة عز سلطاني لمضرة شي . فيها يجده طاقته .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطاني إلى بر بركة وأولاده وبلادهم وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً : لهم أن يعبروا في بلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخائيل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق : أرسلوا في بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطاني ، آمنين مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة الملك الجليل كرميخائيل إلى بلاد عز سلطاني جور ولا ظلم ، ويرددون آمنين مطمئنين يعملون متاجريهم ، ولهم الرعاية في الصدور والورود ، والمقام والسفر : بحيث يكون للتجار مملكة عز سلطاني في بلاد مملكة الجليل كرميخائيل مثل ذلك ، ويكونون مرعيين ، ولا يجدون من أحد في بلاد مملكة الملك الجليل كرميخائيل جوراً ولا ظلاً . ومن عليه حق واجب في الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بممالك وجوار تمكنهم مملكة الملك الجليل كرميخائيل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطاني ولا تمنعهم . وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين في البحر ، ونسبت الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يسير عز سلطاني إليه في طلبهم ، ولا يتعرض أحد من نواب مملكة عز سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم أخذون ، أو تظهر عين المال معهم ، على ما تضمنته نسخة بين الملك الجليل كرميخائيل ، والمملكة الملك الجليل كرميخائيل من بلاد عز سلطاني مثل ذلك .

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين : من مملكة عز سلطاني ، ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يكونون آمنين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : برآ وبحراً ، وتكون رعية بلاد عز سلطاني ، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمنين مطمئنين ، صادوين وإردين ، محترمين مرعيين .

وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة ، مستمرة مستقرة ، على الدوام والاستمرار » (٥٦) .

وهكذا فإن ميخائيل الثامن باليولوغوس قد نجح في ذكاء فد في أن يعالج المواقف المعقدة في الشرق الأدنى مع جبراته من سلاجقة ومغول ومماليك . كذلك وفق في التخطيط ضد عدوه الألد شارلس من آنجو صاحب صقلية ، بضرب حلف مع السلطان قلاوون لمحاصرة تحركاته بأسطوله في شرقي البحر الأبيض المتوسط .

(٥٦) صبح الأعشى ، ٢٩ ، ٥٠ ، ص ٧٥ - ٧٨ .

الفصل الرابع البيزنطيون وفرنجة اليونان في عصر ريبايلوغوس

يقال إن هنري شقيق وخليفة بلدوين في حكم القسطنطينية (الذي حكم من ١٢٠٥ إلى ١٢١٦) قد توفي أسيراً في أيدي واحد من نبلاء البلاط الأتوياء هو كونت بياندرات ، الذي كان على علاقة طيبة بالبيزنطيين . وقد خلف هنري على عرش الإمبراطورية الصليبية في القسطنطينية زوج أخته يولاندة المدعو بطرس من كورتيناى . تلقى بطرس تاج الإمبراطورية من أيدي البابا هونوريوس الثاني في كنيسة سان لورنزو خارج أسوار روما . وبعد التتويج عبر بطرس إلى ميناء دورازو بقصد مواصلة الرحلة عبر الطريق الصليبي القديم « فيا اجناتيا » (Via Egnatia) المؤدي إلى سالونكا وبوابات المشرق .

غير أن كُتّاب حكومة ابيروس البيزنطية انتقضت على بطرس ورجاله على من الباسان (Elbassan) ، وألقت القبض على الإمبراطور اللاتيني الجديد وعلى القاصد البابوي الذي كان في صحبته . ومع أن السلطات في ابيروس قد أطلقت سراح المندوب البابوي بعد قليل ، إلا أنها احتجزت بطرس في السجن حتى مات « ، أغلب الظن بضربة سيف »^(٥٥) .

(57) George Akropolita, (Bonn ed.), p. 28.

بعد موت بطرس من كورثيناى صارت مقاليد الأمور في كل من القسطنطينية وسالونكا ، التي توفي صاحبها بونيفاس ماركيز مونت فرات ، في أيدي سيدتين فرنجيتين هما يولاندة ومارجريت بالترتيب . وإذا كان هلاك بطرس قد جاء على يد تيودور انجيلوس صاحب ايروس ، فإن سقوط سالونكا قد تم أيضا على يد نفس الشخص . وذلك في سنة ١٢٢٢ م .

كان لسقوط سالونكا في أيدي البيزنطيين صدمة كبرى في المغرب اللاتيني ، فبادر البابا هونوريوس الثاني بإصدار أوامره إلى قلاع سالونا وبودونزا ، في شمالي بلاد اليونان — بأن يعمل أصحابها من فرسان الفرنجة على الصمود ضد ضربات البيزنطيين . ثم طلب البابا من فرنجة آثينا وآخايا (المورة) بأن يشنوا الحرب ضد ايروس البيزنطية لاسترجاع سالونكا من أيديهم . وفي نفس الوقت راح البابا يخطط لمشروع حملة صليبية جديدة هدفها الأول استرداد سالونكا من أيدي البيزنطيين ، الذين فصلوا الآن بين فرنجة بلاد اليونان في الجنوب وبين عاصمتهم الصليبية في القسطنطينية .

بعد أن مكن تيودور انجيلوس لنفسه في ايروس وسالونكا ، شعر بالثقة الزائدة عن الحد ، فقرر الدخول في مغامرة حمقاء ضد يوحنا آسن الثاني خان البلقار ، رغم أن معاهدة سلام كانت قد أبرمت بين الرجلين منذ وقت قريب . ولذا فإن الخان هجم بجيشه ، وهو يحمل على علمه وثيقة القسم الذي كان تيودور انجيلوس قد أداه له ، على خصمه وأوقع به هزيمة نكراء عند بلدة كلوكوتنزا على نهر مارتزا في سنة ١٢٣٠ م . ووقع تيودور انجيلوس أسيراً في أيدي الخان البلقاري ، الذي عامل أسيره أول الأمر بالرفق ، ولكنه ما لبث أن أمر بسمل عينيه بعد أن تبين له أنه يتآمر ضده في الخفاء . في أثناء ذلك اضطلع مانويل انجيلوس بحكم ما تبقى من أراضي أخيه الأسير وأعلن نفسه امبراطوراً على ايروس ، معتمداً على أنه كان زوجاً لإحدى بنات الخان .

غير أن الخان البلقاري قد افتن بجمال ابنة أسيره ، فلما أن طلب يدها

وافقت مقابل أن يطلق مراح والدها من سجنه . وما أن خرج تيودور انجيلوس من السجن — وهو ضرير — حتى تسلل متهكراً إلى سالونكا وجمع من حوله قفراً من قدامى الأصدقاء ، ونجح في إزاحة أخيه مانويل عن عرش سالونكا . وراح يمارس الحكم بمعونة ابنه يوحنا .

فرّ مانويل من وجه أخيه الضرير لاجئاً إلى بلاط نيقيا ، فرحب به سيدها قاتانزيس . ثم تحرك قاتانزيس وضم سالونكا إلى حكمه سنة ١٢٤٦ م دون أن يصادف مقاومة تذكر ، كما سبق أن بينا في فصل سابق .

غير أن مغامراً من بيت انجيلوس اسمه ميخائيل الثاني نجح في الاستيلاء على ابيروس وايتوليا وكورفو ، وتلقب بلقب « سيد هلاس » . ولكي يحافظ « سيد هلاس » الجديد على أراضيه سعى إلى كسب رضا سيد نيقيا القوي . وقد ساعده على تحقيق ذلك المهدف زوجه تيودورة . وتيودورة من أصل فرنجي من منطقة پروفانس الفرنسية . وتروي الروايات أنها كانت زوجة وفية لميخائيل الثاني رغم معاملته القظة لها : فلقد طردها ذات مرة من قصره ليستقبل فيه فاتنة يونانية اسمها جانجريثيه . ولما استنكر نبلاء القصر فعله هذا ، ردّ تيودورة إلى قصرها ، وكفر عن ذنبه ببناء دير « المخلص » في بلدة جالاكسيدس على خليج كورنثة لإرضاء لها . قصدت تيودورة بنفسها إلى بلاط نيقيا ، حيث قوبلت باحترام وترحيب ، وهناك اتفقت على زواج ابنها ثقفور من حفيدة قاتانزيس ؛ من أجل إقرار الصلح بين زوجها وسيد نيقيا . ولكن جهود تيودورة المخلصة قد تبددت أمام أطماع زوجها ، الذي استأنف نشاطه ضد صاحب نيقيا سنة ١٢٥١ م .

هجم قاتانزيس على البلقان لتأديب ميخائيل الثاني ، الذي خشي مواجهة خصمه ، فطلب الصلح من قاتانزيس .

وأرسل قاتانزيس سفيره جورج أكربوليتا (المؤرخ) لعقد الصلح مع ميخائيل الثاني ، وعاد السفير المؤرخ بعد توقيع الصلح بحر في موكبه تيودور

المعاصر العجوز الضرير ليلقي به أسيراً في سجون نيقيا . ولكن ميخائيل الثاني انتهر فرصة وفاة فانتازيس سنة ١٢٥٤ م وحرض الألبان على مهاجمة قلعة بريلاب التي كانت تحت اشراف جورج اكروبوليتا ، ولما سقطت القلعة اقتيد اكروبوليتا أسيراً إلى سجن أرته ، وهناك انكب الرجل على كتابة تاريخ تلك الفترة المضطربة . ولم يكن وريثاً فانتازيس في نيقيا في موقف يمكنهما من تأديب ميخائيل الثاني ؛ فقد كان تيودور الثاني يعاني من مرض عضال ، وبعد وفاته ترك على العرش طفلاً قاصراً هو يوحنا الرابع . وظن ميخائيل الثاني أن القدر قد ابتسم له ، وبأنه قاب قوسين أو أدنى من الجلوس على عرش القسطنطينية . الذي كان يهتز تحت الصليبي الجالس عليه . ولكي يحقق هذه الأمنية عمل على توثيق علاقاته بحبرائه من أمراء الفرنجة ؛ فزوج ولیم فلھاردوان أمير اخايا من ابنته آنا ، كما زوج ابنة أخرى هي هيلين من مانفريد ملك صقلية . وتلقى مانفريد مهراً من زوجه على شكل أرض في ابيروس وكورفو ، ووكل أمر الإشراف على هذه الأرض إلى فصل له هو الأدميرال فيليبو شيناردو ، وهو فرنجي من قبرص .

ولما أن وصل ميخائيل الثامن باليولوجوس إلى عرش نيقيا ، وصياً على الطفل القاصر يوحنا الرابع ثم شريكاً له في الحكم ، شعر ميخائيل الثاني أنه سيواجه خصماً عتيداً . فبادر إلى الاستنجد بمانفريد وولیم فلھاردوان ، زوجي ابنتيه ، للتصدي للحملة التي أرسلها باليولوجوس ضددة بقيادة أخيه يوحنا .

أرسل مانفريد إلى حميه أربعمائة من الفرسان الألمان ، وأقبل ولیم فلھاردوان صاحب آخايا على رأس فرسانه الفرنجة لمساعدة ميخائيل الثاني . وكان من بين رجال ولیم نفر من الفرسان المرموقين ، وعلى رأسهم الكونت رتشارد صاحب كيفالونيا ، وتوماس الثاني صاحب سالونا ، وابورتينو صاحب بودونتزا . وكان جيش نيقيا يضم فرقا مرتزقة ، من بينها ثلاثمائة من الفرسان الألمان بقيادة دوق كارثيا ، وألف وخمسمائة من رماة الرمح الهنغار ، وستمائة من

مقاتلي صربيا ، وفرقة من البلغار ، وفرقة أخرى من مقاتلي الأناضول الذين تمسوا على مقاتلة الترك إلى جانب خمسمائة من المرتزقة الترك ، وألفين من عيالة الكومان .

وسرعان ما دب الخلاف بين ميخائيل الثاني وحلفائه الفرنجة ، وساعد على تعميق هوة الخلاف موقف يوحنا الابن غير الشرعي لميخائيل الثاني ، الذي احتج على سلوك الفرنجة لأن فرسانهم قد « دأبوا » زوجه القاتنة . وقوبل احتجاجه بأن تغمز عليه بعضهم بنسبه غير الشرعي . ولذا فقد انضم يوحنا إلى معسكر نيقيا نكاية في الفرنجة . ثم هرب والده ميخائيل الثاني من ميدان القتال ، تاركا الفرنجة وحدهم ليشلقوا ضربات جيش نيقيا . ودارت معركة شرسة بين الطرفين عند بلدة بيلاجونيا في غربي مقدونيا (سنة ١٢٥٩ م) ، سقط فيها العديد من فرسان الفرنجة ، ووقع عدد آخر منهم في الأسر . وكان على رأس الأسرى وليم فلهااردوان ، الذي سقط من على ظهر جواده وحاول أن يتغني وجهه بكومة من القش ، ولكن أمره قد اكتشف ، واقتيد مع بقية الأسرى ومن بينهم جيوفري دي بروير « زهرة فرسان آخايا » .

أرسل يوحنا باليولوجوس الأسرى الفرنجة إلى معسكر أخيه ميخائيل الثامن في لاميساكوس . ثم تابع يوحنا انتصاراته فاستولى على جواتينا وأرته ، وحرر المؤرخ جورج اكروبوليتا من سجنه في الأخيرة . بعد هذا تقدم يوحنا باليولوجوس ومعه سمييه يوحنا^(٥٨) ابن ميخائيل الثاني لمهاجمة تساليا ونيوباتراس وطيبة . وعند الأخيرة هرب يوحنا إلى معسكر والده في جزر ليوكاس وكيفالونيا . ثم اندلعت الثورة في بلاد اليونان — بتحريض من ميخائيل الثاني وأبنائه — ضد جيوش نيقيا ، واضطر يوحنا باليولوجوس إلى التقهقر قبل فوات الأوان .

(٥٨) يلاحظ أن سيد ايروس اسمه ميخائيل (الثاني) ، وسيد نيقيا اسمه ميخائيل (الثامن) ، وأن ابن ميخائيل الثاني اسمه يوحنا ، وشقيق ميخائيل الثامن اسمه يوحنا أيضاً .

وبعد عام واحد من كارثة بيلاجونيا ، تلقى ميخائيل الثاني فرقة من الفرسان من زوج ابنته مانفريد ، فسير ابنه الأكبر تقفور على رأسهم لمقاتلة جيش نيقيا الذي كان بقيادة الكسيوس ستراتيوجوبولوس . وحلت الهزيمة بجيش نيقيا ، ووقع الكسيوس في الأسر ، ثم وقعت هدنة بسين الطرفين وأطلق سراح الكسيوس سنة ١٢٦٠ م .

ومن المفارقات المذهلة في التاريخ أن الكسيوس ستراتيوجوبولوس ، ذاك الأمير المنهزم على يد فرقة هزيلة من مرتزقة الغرب الألمان ، هو ذاته الذي تم على يديه في العام التالي لإطلاق سراحه من الأسر أكبر عمل بطولي في تاريخ بيزنطة ، ألا وهو استرداد القسطنطينية من أيدي الصليبيين . والأشد غرابة في الأمر أن هذا البطل الأسطوري قد شاءت له الأقدار أن يقع مرة ثانية أسيراً في أيدي حكام إيروس . ولقد أذهلت تلك المفارقات « المضحكة المبكية » المعاصرين من المؤرخين البيزنطيين ، فراحوا يقارنون هنا « البطل الأسير » بسيرة قورش الفارسي ، وهانيبال القرطاجي ، وبومبي الروماني . ولما أن وقع « البطل » للمرة الثانية في أيدي حكام إيروس ، أرسلوا به إلى بلاط مانفريد ملك صقلية ، وظل حبيساً هنالك حتى استرده ميخائيل الثامن باليولوجوس معزاً مكرماً ، مقابل شقيقة مانفريد نفسها ألا وهي الأميرة الصليبية آنا ، التي كانت قد وقعت أسيرة في أيدي باليولوجوس .

بعد ثلاثة أعوام من موقعة بيلاجونيا ، زحف بطلها يوحنا باليولوجوس وهاجم جيش حكام إيروس وأوقع به هزائم متلاحقة . واضطر ميخائيل الثاني إلى أن يوفد زوجه « الطيبة » تيودورة مرة أخرى لتتشفع له في بلاط باليولوجوس . ونجحت تيودرة في إقرار الصلح بين الطرفين ، وأودعت ابنها الأصغر يوحنا رهينة في بلاط باليولوجوس ، ثم زوجت ابنها الأكبر تقفور من ابنة أخت لهاليولوجوس .

لعل أهم نتيجة لذلك الصراع الذي دار بين ميخائيل الثامن باليولوجوس

وبين حكام إبيروس أن أصيبت إمارة آخايا الفرنجية بالخراب . وقتل خيرة فرسانها في ميادين القتال . وما أن اقتيد الأسرى الفرنجية إلى بلاط باليولوغوس ، عرض عليهم المال الطائل على أن يرحلوا عن بلاد اليونان ويشتروا إقطاعات لهم في فرنسا بهذا المال . ولكن ولم فلهاردوان رد بأن أراضي المورة ليست ملكا له وحده ، وإنما هي أرض « أقرانه » الفرسان من السادة الإقطاعيين ، وهو على هذا لا يملك حق التصرف في حقوق أقرانه أو أفصاله . وغضب الأميراطور من إجابة أسيره ، فأمر بإلقائه ورفاقه في السجن لمدة ثلاثة أعوام .

بعد أن سقطت القسطنطينية في أيدي ميخائيل الثامن باليولوغوس ، هرب أميراطورها الصليبي بلدوين الثاني إلى بخروپونت ، ومنها إلى طيبة ثم إلى آثينا . وفي آثينا كان جي دوق آثينا ، الذي اضطلع بالوصاية على آخايا أيضا ، في انتظاره . ورحب الدوق بالأميراطور الطريد في قلعة كادمية (Kadmeia) عند الأكروبول العتيق . ثم توافدت دوقة ناكسوس ورتل من السيدات الفرنجيات لتقديم الهدايا للأميراطور . ولم يكن الأميراطور يملك ما يرد به جمائل نبيلات ونبالة الفرنجة اللهم إلا بعض المخلفات الأثرية الدينية التي حملها معه عند فراره من القسطنطينية ، ولما كان مدينا لأوتون دى كيكون صاحب خاريسوس بمبلغ خمسة آلاف هيبيري (Hyperperi) ، فقد سدد دينه بذراع القديس يوحنا المعمدان . وقد أهدى أوتون ذاك الأثر إلى دير سبتوه في برغنديا . وهكذا فإنه « على صخرة آثينا المهيبة أسدل الستار على الفصل الأخير من الدراما المجزوعة للأميراطورية اللاتينية في القسطنطينية »⁽⁵⁹⁾ . وبعد هذا المشهد التاريخي أبحر بلدوين من ميناء بيريه إلى مونقاسيا ، ومنها إلى غرب أوروبا لكي يبحث عن صليبية جديدة ترجع إليه ملكه الضائع !

بعد أن استرد ميخائيل الثامن القسطنطينية تسمى « بقسطنطين الجديد » ، وعقد العزم على ضم بلاد المورة إلى حظيرة الأميراطورية المستردة لتكتمل لها

(59) Miller, W., *Latins in the Levant* (1204 - 1566), p. 115.

وحدثها . وكانت الأعوام الثلاثة التي قضها وليم فلهاردون صاحب المورة في سجون باليولوجوس قد كسرت من حدة كبريائه ؛ خاصة وأن بعض رفاقه هددوا هلكوا في السجن ، ولذا فقد توصل معه ميخائيل الثامن إلى حل وسط . ووافق وليم على أن يرد لميخائيل الثامن فلاح مونتفاسيا ومالينا ومسترا ، ولكنه رفض طلب الامبراطور - في استرداد أرجوس وناپوليا ، محتجاً بأنهما تخصان دوق آئينا وحده . وبعد الاتفاق أعلن وليم تبعيته لميخائيل الثامن وأقسم له بيمين الولاء والطاعة على أن يحكم ما تبقى من أراضي آخابا فصلاً للامبراطور ، وأنعم عليه الامبراطور بلقب « السنكال الأكبر » . كما أطلق الامبراطور سراح عدد من أتباع وليم ؛ من بينهم البارون جيوفري دي بروير ، الذي كان مقرباً لقلب الامبراطور^(٦٠) .

عندما وصلت رسالة وليم فلهاردون إلى جي دوق آئينا بما تضمنه الاتفاق مع الامبراطور ، شعر بأنه لو سلم القلاع الثلاث لمندوبي ميخائيل الثامن فإنه يعرض المصالح الفرنجية في بلاد اليونان لخطر داهم . والمعروف أنه كانت بين جي ووليم ضغائن قديمة ، ولكن جي - رغم هذا - عقد المجلس الإقطاعي الأعلى للإمارة في بلدة نيكلي (Nikli) وهي نفس البلدة التي كان قد مثل فيها صاغراً ذات يوم أمام وليم فلهاردون للمحاكمة الإقطاعية . غير أن أعضاء المجلس الإقطاعي هذه المرة كن في الغالبية من السيدات ، لأن الرجال قد هلكوا في حقول بيلاجونيا أو اقتيدوا إلى الأسر . على أن المجلس كان يضم رجلين قويين هما ليوناردو دي فيرولي مستشار ولاية آخابا ، وبطرس من فوه (Vaux) من وجهاء القوم فيها . وكان طبيعياً ، والمجلس جله من الجنس الرقيق ، أن تغلب العاطفة على صوت العقل ، رغم أن جي خطب فيهن وهو يجھش بالبكاء بأنه من الأخير للفرجة أن يموت واحد منهم على أن يهلك الجميع ويضيع على فرجة المورة عناء الآباء . كما عرض جي أن يضع نفسه في السجن بدلاً من

(60) Pachymeres (Bonn ed.), i, 88.

وليم ، إن كانت القضية هي مجرد إطلاق سراح الأمير . ولكن العضوات المحن إلى جي أن القلاع التي هي موضع الجدل لم تكن ملكا لـجي بل هي لـوليم ، الذي الذي من حقه وحده أن يتصرف فيها وفق لإرادته . واضطر جي إلى الامتنال لرأي « الرفيقات » ، وسلم القلاع الثلاث للسلطات البيزنطية . وسافرت نييلتان فرنجيتان هما مارجريت ابنة مارشال آتاليا وإحدى صويحباتها الي القسطنطينية رهيتين لدى باليولوغوس .

أطلق سراح وليم فلهااردوان فسافر إلى بخروبولس ، حيث كان جي دوق أثينا في استقباله ، واصطحبه إلى طيبة . وفي طيبة عقد الصلح بين جي ووليم وأيضا مع جمهورية البندقية لانتهاء الضغائن القديمة بين الأطراف جميعاً . ولعل هذا التقارب بين الفرنجة والبندقية ينير لنا الطريق لفهم طبيعة المشاعر التي باتت جمهورية سان مارك تضمها نحو ميخائيل الثامن . ذلك أن ميخائيل الثامن كان قد وقع معاهدة تجارية مع جمهورية جنوة ، نقل بمقتضاها كل الامتيازات التجارية التي كانت تنعم بها البندقية إلى غربتها جنوة ، وكان ميخائيل الثامن يعتمد عقاب البنادقة بسبب دورهم الضالع في تحطيم الدولة البيزنطية سنة ١٢٠٤ م . ولكي يزيد الأمر اضطور من إشعال نار الندم في قلوب البنادقة منح الجنوية حرية الحركة التجارية في كل أرجاء الإمبراطورية ، إلى جانب جزيرتي كريت ونجروبولس . كذلك سمح الأمر اضطور للجنوية بإقامة المستعمرات في آتاليا ولسبوس ونخيوس وأزمير ، ووجههم فوق كل هذا حيا كاملاً للجنالية الجنوبية في العاصمة هوجي غلاطة . وأمر ميخائيل الثامن بإغلاق البحر الأسود في وجه سفن البندقية . ومنذ توقيع هذه المعاهدة المعروفة بمعاهدة نفايون ، تصاعد مركز جنوة التجاري بشكل ملموس في الشرق الأدنى ، على حساب جمهورية سان مارك .

عين ميخائيل الثامن حاكماً بلقب « كيفالي » على القلاع التي استردتها بيزنطة في المورة ، ثم استبدله بمارشال بلقب « بروتوستراتور بروتو — الاغاتور »

وجعل مقره في بلدة مسّرا^(٦١) . وكان لا مفر من نشوب صراع مرير بين ذلك النائب الأمبراطوري وبين الفرنجة في المورة ، فقد كانوا يحيطون بمقر قيادته من كل جانب . واستعان الطرفان بالجنود المرتزقة من كل جنس وبأي ثمن . وكانت نتيجة هذا الصراع أن حل الخراب ببلاد اليونان ، فعندما عجزت خزانة الأطراف المتصارعة عن دفع الرواتب للمرتزقة من الجند ، لجأ هؤلاء إلى النهب والسلب للحصول على المال ، فخربت بيوتات الأهلين ، ويرجع الكثير من المؤرخين سبب تغلب الأتراك فيما بعد على بلاد اليونان إلى تلك الصراعات المستمرة بين البيزنطيين والفرنجة ، والتي قصمت ظهور الناس وامتصت دمائهم حتى العظام .

عند عودة ولیم فلھاردوان إلى المورة ، التفت الفرسان الفرنجة من حوله ، ثم قام برحلة استطلاعية للبلاد ، بينما كان نواب البيلوغوس يراقبون تحركاته من أبراجهم في مسّرا . ويبدو أن ولیم كان عازماً على الانتقام من البيلوغوس ، رغم أنه كان قد أقسم ميمناً على « المعمودية » بأنه لن يرفع سلاحاً ضد الأمبراطور بعد إطلاق سراحه . ولكن « ضمير » ولیم قد وجد في شخص البابا أوربان الرابع صكاً للفقران الأكيد وللتحلل من القسم الذي كان قد أداه البيلوغوس . كان البابا أوربان الرابع فرنسياً متعصباً لفرنجيته ، وكان شديد الإيمان والأمل « بفرنسا الجديدة » التي أقامها بنو جلده في بلاد المورة . ولذا فإنه يادر بإرسال المال والمعونة لولیم فلھاردوان . كما أنه أكد لولیم أنه في حل من اليمين التي كان قد أداهها للأمبراطور ؛ لأن هذا قد تمّ وهو سجين لا يملك حرية القرار . كما ألح له البابا بأنه في مقدور الفرنجة أن يتذرعوا دائماً بأن البيزنطيين هم الذين بدأوا بالعدوان على فرنجة المورة .

لما علم ميخائيل الثامن بنوايا ولیم فلھاردوان أرسل جيشاً بقيادة أخيه قسطنطين ، وفي نفس الوقت أبحر الأسطول البيزنطي بقيادة فيلانثروبينوس إلى

(61) « Bulletin de Correspondance hellénique », xxiii, 115, 125.

بحر لإجعة لمحاصرة سواحل المورة . وكانت غالبية جند الأسطول من جماعات « الجازمولوي » (Gasmouloi) ، وهم نتاج الزيجات المختلطة بين فرسان الفرنجة واليونانيات ، وكان هؤلاء الجند على درجة كبيرة من المهارة « لأنهم جمعوا في دمائهم بين مكر الأغارقة وبأس اللاتين »^(٦٢) . كذلك ساهمت جنوة بنقل بعض الفرق البيزنطية إلى مونتقاسيا ، وشاركت في الهجوم البحري على جزر بحر إيجه .

هب فرسان الفرنجة في بلاد اليونان لمساعدة ولیم فلهاردون ضد الحملة البيزنطية ، ولم يتخل عن المشاركة في القتال إلا أفضلهم وهو جيوفري دي برويير ، ولعل العلاقة الوطيدة التي قامت بينه وبين ميخائيل الثامن أثناء أسره في القسطنطينية هي التي أملت عليه هذا الموقف . ولم يعجز كتاب الفرنجة في التماس عذر آخر لجيوفري فقالوا انه عند اشتعال الحرب كان يمر بقصة غرام مع واحدة من بنات زمانها ، والتي جرته للإبحار إلى أبوليا بحجة أنه « مشتاق للحج إلى أعتاب سان نيكولا في باري ولرحاب سان ميشيل على جبل جرجانو » .

زحف البيزنطيون نحو اندرافيدا ، عاصمة الفرنجة في المورة ، وفي طريقهم أشعلوا النيران في دير فرنجي هو بيت « سيدتنا من إيزوقا » . وعند بلدة برتنيزا تصدت لهم فرقة من فرسان الفرنجة قوامها ٣١٢ رجلاً بقيادة جان دي كاتافاس ، وهو زوج السيدة التي كانت قد هربت مع عشيقها جيوفري إلى أبوليا . وكان كاتافاس محاربا شديدا البأس ، رغم أنه كان فريسة للآلام الروماتزمية ، ويروى أنه شد علم أخاياه على يده ، ووعده رجاله بنصر وشهرة « سوف تسدوم ذكراها دوام سيرة الفلك على جبال آرات » . وضرب كاتافاش المثل لرجالته ، فمرق كالسهم على صهوة جواده ، وقد النف بثوب ناصع البياض ، نحو خيمة القائد البيزنطي قسطنطين باليولوجوس .

(62) Paparregopoulos, Istoria to Ellenikon Ethnous, (4th ed. by P. Kalolidos, V, 130).

وانتشر بين البيزنطيين قول بأن سان جورج يقود جيش الفرنجة نحو النصر ، انتقاماً لتلك المهانة التي حلت بدير عذراء ايزوفا . وقد هرب قسطنطين من وجه كاثافاس ، وتفرق الجند البيزنطيون في الغابات المجاورة لأرض المعركة .

واشتبك الطرفان مرة أخرى سنة ١٢٦٣ عند بلدة ميز سسكلين ، وحلت الهزيمة بالبيزنطيين . ثم دب الخلاف بين القائد البيزنطي وفرقة من المرتزقة الترك بسبب تأخر رواتبهم لمدة ستة شهور كاملة . وهنا انتقل الترك من المعسكر البيزنطي وانضموا تحت لواء الفرنجة ، وعلى ضفاف نهر إلس (Elis) تم أول حلف بين الفرنجة والترك ضد البيزنطيين .

وهكذا فإن الفرنجة الذين اغتصبوا بلاد اليونان من البيزنطيين ، لم يجدوا غنصاً في عقد حلف مع أعداء بيزنطة بهدف تحطيم كيان الدولة المستردة . وقد عرف الترك منذ تلك اللحظة مكاناً الضعف في بلاد اليونان ، الأمر الذي سهل لهم فيما بعد السيطرة عليها .

هجم الفرنجة وحلفاؤهم الترك على البيزنطيين ، وأنزلوا بهم هزيمة قاسية في ممر ماكري بلاجي ، ووقع القواد البيزنطيون في الأسر . وبعد هذا النصر زحف ولیم فلھاردوان على بلدة لاكميدونيا ، ففر منها أهلها اليونانيون إلى بلدة مسترا . وقد حيا ولیم فلھاردوان هذه الانتصارات على البيزنطيين بالسماح لبعض الفرسان الترك بالزواج من بعض النobiles الفرنجيات ، توطيداً للعلاقة بين الخليفتين . وتجمع المصادر المعاصرة أن الحروب التي جرها الفرنجة على تلك البلاد اليونانية قد أفقرتها من الحرث والنسل ، وهلك غالبية شباب البلاد ، ونحن تعلم من مؤرخ معاصر أن سيدة من أهالي تلك المناطق فقدت أزواجاً سبعة الواحد بعد الآخر جميعاً في تلك الحروب (٦٣) .

كان ولیم فلھاردوان خصماً عتيداً لميخائيل الثامن ، خاصة بعد أن أُلقت

(63) Sanudo, Diarii, apud Hopf, Chroniques greco-romanes, 116-118, 135. (This historian wrote his chronicle in A.D. 1328, while living in Constantinople.)

البابوية بثقلها وراء فرنجية المورة ضد الدولة البيزنطية . ولذا فإن ميخائيل الثامن قد أثر فتح باب المفاوضات مع عدوه الفرنجي ، واقترح عليه أن يتزوج اندرونيكوس الثاني ولي العهد البيزنطي من ايزابلا كبرى بنات ولسم ، على أن يكون لاندرونيكوس الحلق في وراثة الحكم في آخايا . وكان هذا المشروع — لو أنه قد تم — كفيلاً بأن يؤلف بين اليونانيين والفرنجية وأن يوقف تلك الحروب الدامية بين الطرفين ، وكان من الممكن في تلك الحالة أن تقوى المورة على التصدي للغزو التركي فيما بعد .

ولكن فرسان الفرنجية رفضوا ذلك المشروع ، ولم يقبلوا أن يكون سيدهم المقبل بيزنطياً « مهرطقاً محنتاً » .

في تلك الآونة من الصراع بين بيزنطة وفرنجة بلاد اليونان ظهر على مسرح الأحداث معامر جديد هو شارلس من آنجو شقيق لويس التاسع ملك فرنسا . وكان البابا الفرنسي أوربان الرابع قد استعدى شارلس من آنجو على مانفريد ابن فردريك الثاني هوهنشتاوفن ، على أن يؤول حكم صقلية بعد القضاء على مانفريد إلى شارلس من آنجو . وهجم شارلس على جيش مانفريد عند بنفنتو وانتصر عليه انتصاراً حاسماً . وبذلك آلت أراضي الهوهنشتاوفن في جنوب إيطاليا وصقلية إلى شارلس من آنجو . ولم يكتف الأدمير الفرنسي بما حققه من مكاسب في صقلية وجنوب إيطاليا ، وإنما راح يطالب بالأراضي البيزنطية في ابيروس وكورفو التي كانت قد آلت إلى مانفريد عند زواجه من أميرة من بيت ابيروس هي هيلين انجيلوس . وقد ألقى شارلس بالآخيرة وأبنائها في سجون نابلي بعد القضاء على زوجها مانفريد . وفي ٢٧ مايو ١٢٦٧م التقى شارلس من آنجو مع الأمبراطور الصليبي الطريد بلدوين الثاني في بلدة فتربو (Viterbo) في حضور البابا كلمنت الرابع . ووقع الطرفان اتفاقية تنازل بمقتضاها بلدوين لشارلس عن السيادة الإقطاعية على إمارة المورة وأراضي بلاد اليونان الأخرى التي كانت في أيدي النبلاء الفرنجة . وكان وليم فلهاردون — أمير المورة — قد أرسل ممثلاً له

إلى ذلك الاجتماع ، وهو ليوناردو دي فيرولي ، الذي تعهد ، نيابة عن سيده ، بالاعتراف بشارلس سيداً إقطاعياً على كل فرسان آخايا ، كما تعهد بامداد الأمير الفرنسي بألفين من الفرسان من أجل استرداد القسطنطينية من أيدي البيزنطيين. وقد توثقت هذه المعاهدة بزواج بياتريس ابنة شارلس من فيليب ابن بلدوين الثاني .

أمام ذلك الخطر الداهم الذي غطط له شارلس من آنجو مع البابوية وبلدوين الثاني ووليم فلهاردوان ضد الدولة البيزنطية ، عمل ميخائيل الثامن على تجميع جمهورية البندقية في صراعه المقبل ضد الفرنجة ، ولذا فقد عقد مع البندقية معاهدة « محبة تقية » (Agapey) أمنها بمقتضاها على مصالحها في كورون ومودون ويويويا وكريت . كذلك منحها ميناء تساليا وامتيازات تجارية في نجرابونت ، وتعهد بطرد البجنوية من أراضي الإمبراطورية ليحل البنادقة مكانهم .

في ذلك الوقت طلب شارلس من آنجو من فصله ولیم فلهاردوان أن يساهم معه في حربه ضد الأمير الألماني كونرادين الذي عبر جبال الألب للمطالبة بميراث الهوهنشتاوفن في إيطاليا ومملكة الصقليتين . ورغم أن أرملة مانفريد كانت شقيقة لزوج فلهاردوان ، إلا أنه لم يتوان في تلبية طلب شارلس ، وهو الذي ألقى بهذه الأرملة في سجون نابلي ، وشارك ولیم فلهاردوان بنفسه وبأرعيائه من فرسانه في معركة تاجليا كوتزو ضد كونرادين . وحلت الهزيمة بالألمان ، رغم تفوقهم العددي ، ويرى البعض أن المصير التمس الذي حل بكونرادين كان من فعل ولیم فلهاردوان ، الذي عمل مع سيده شارلي من آنجو على مغالبة الألمان « بحيلة البيزنطيين وشراسة الترك » ، تلك الصفات التي تعلمها في ميادين قتال المورة⁽⁶⁴⁾ . فلقد تظاهر فلهاردوان بالتقهقر ، فتشجع الألمان حتى وصلوا

(64) Dante ascribed Conradin's defeat to the craft of a certain Errard de Valeri, not to William of Villehardouin :

« Ove senz'arme vinse il vecchio Alardo. »

إلى معسكر شارلس من آنجو الملقب بالملء بالمون والخيرات ، وعند انشغالهم بتلك الغنائم انقض عليهم فرسان آخايا بغتة فأبادوهم جميعاً .

بعد ذلك الانتصار الساحق على كونرادين رحل قلها ردوان مع شارلس من آنجو إلى نابلي ، حيث تلقى الهدايا والعطايا ، ثم عاد إلى المورة . وبعد قليل أبحرت ايزابلا ابنة قلها ردوان إلى نابلي لتزف إلى فيليب ابن شارلس آنجو ، وقد تم الزواج في بلدة تراني سنة ١٢٧١ م .

تحرك ميخائيل الثامن فأرسل حملة على مونثاسيا ، فاستنجد قلها ردوان بسيد شارلس من آنجو . أرسل شارلس الرجال والمال والقمح لقلها ردوان ، وبعث دريه دي بومونت نائباً عنه للمشاركة في القتال ضد البيزنطيين ، ولكن نتيجة القتال لم تكن حاسمة لأي من الطرفين .

وفي نفس الوقت سعى ميخائيل الثامن إلى التقرب من البابا جريجوري العاشر ليعمل من جانبه على كبح جماح شارلس ، مقابل أن يوافق ميخائيل على ضم الكنيسة البيزنطية لكنيسة روما . وبالفعل نجحت خطة ميخائيل ، إذ طلب البابا من وليم قلها ردوان السماح للسفراء البيزنطيين بعبور أراضي المورة في طريقهم إلى الغرب للمشاركة في أعمال مؤتمر ليون الثاني سنة ١٢٧٤ بهدف توحيد الكنيستين . وكان من بين هؤلاء السفراء المؤرخ جورج اكروبوليتا . غير أن عاصفة جرفت إحدى السفن التي كانت تقل السفراء عن رأس مالبا ، وارتطمت السفينة بميناء مودون البندقي ، ومنه تابع السفراء رحلتهم إلى ليون .

ولئن كان تقارب ميخائيل الثامن مع البابوية قد خدم القضية البيزنطية بعض الوقت ، إلا أن هذه السياسة قد أثارت غضباً شديداً بين البيزنطيين جميعاً . وتلقف حكام ايروس تلك الفرصة الذهبية لتوجيه طعنة نجلاء ضد خصمهم ميخائيل الثامن . وكان سيد ايروس ميخائيل الثاني انجيليوس قد توفي سنة ١٢٧١ ، فخلفه ابنه الأكبر فقفور في حكم ايروس وجزيرة

ليوكاس . وفي نفس الوقت سيطر يوحنا ، وهو أخ غير شرعي لنقفور ، على مناطق باتراس الواقعة عند قدم جبل أوتيا ، وهي نفس المنطقة التي كانت تحتوي أحفاد المرميدونز الذين كان اخليس قد قادهم لحصار طروادة في قديم الزمان . وكان يوحنا قد وثق علاقاته بأهالي تلك المنطقة بزواجه من ابنة لأحد الأمراء الولاثيين يدعى تاروناس . واحتضن يوحنا قضية الارثوذكسية البيزنطية ، وراح يهاجم سياسة خصمه ميخائيل الثامن ، فاتهمه بالردة والخضوع للمزاعم البابوية على حساب الكنيسة الارثوذكسية وترأثها القويم . وكان طبيعيا أن نجد « صليبية » يوحنا آذانا صاغية في كل أرجاء الامبراطورية البيزنطية ، حتى إن بعض أفراد الاسرة المالكة من آل باليولوغوس قد انضوا تحت لواء يوحنا . ثم عقد رجال الدين البيزنطيون مجلسا كنسيا في حماية يوحنا ، أنزلوا فيه قراراً بالحرمات على ميخائيل الثامن والبابا وعلى البطريرك البيزنطي الذي سمح بالمشاركة في مؤتمر ليون .

لم يجد ميخائيل الثامن مفراً من أن يتملق غرور « لقيط نيوباتراس » ، فعمل على عقد مصاهرة بين ابن أخته اندرونيكوس تاركانيوتس على ابنة ليوحنا ، ثم أنعم الامبراطور على خصمه بلقب « سياستوكراتور » الرفيع المنزلة . غير أن صنع ميخائيل الثامن قد تمخض عن عكس ما كان يصبو إليه تماماً : فلقد شق العريس عصا الطاعة ضد خاله الامبراطور ، وهرب إلى معسكر حميه يوحنا انجيلوس . وكان على ميخائيل الثامن أن يجرد حملة تأديبية ضد يوحنا واندرونيكوس في نيو باتراس . ولكن يوحنا نجح في الهروب من عاصمته المحاصرة متخفياً في زي حارس للخيل ، واخترق معسكر الجيش الامبراطوري دون أن يتعرف على هويته أحد ، ثم حط على طيبة حيث بلاط يني دوق آثينا الفرنسي . وقد عرض يوحنا على مضيفه يد ابنته هلين مقابل مساعدته في محنته ، غير أن يني تعطل بأن حالته الصحية لا تسمح له بشرف ذلك الزواج المقترح ، وعرض أن تزف هلين إلى شقيقه الأصغر وليم دي لاروش . واتفق أن يتم الزواج بعد هجوم الفرنجة على

معسكر الامبراطور المحاصر لنيوياتراس . ويروى أن عدد فرسان الفرنجة كان لا يزيد على الخمسمائة ، في حين أن جيش الامبراطور البيزنطي كان حوالي ٣٠.٠٠٠ ، وأن الدوق الفرنسي لم ينزعج أمام هذا التفوق العددي للبيزنطيين ، وإنما همس في أذن حليفه المتخوف « نعم إن عددهم كبير للغاية ، ولكن الرجال منهم قليل للغاية أيضا » . وانقض فرسان الفرنجة على معسكر الامبراطور في هجوم مباغت ، ونجح يوحنا في دخول عاصمته المحاصرة ، بينما تفرق المحاصرون للمدينة . وبعد هذا الانتصار تم الزواج المتفق عليه ، فزفت هلين انجيلوس إلى ولیم دي لاروش ، وكان مهرها لعريسها هبة دسمة من الأراضي البيزنطية شملت مدائن لاميا ، ولارسا كرىماسي ، وجرافيا ، وسيدرپورتا (هرقاية) .

وبذلك يكون يوحنا انجياوس الانفصالي ، قد ساهم في توسيع نفوذ دوقية آتينيا الفرنجية ، لتقوى شوكتها ضد ميخائيل الثامن ، الذي كان يسعى جاهداً لتوحيد أراضي الامبراطورية البيزنطية جميعاً تحت لواء القسطنطينية التي كان قد استردها بعد كفاح مرير !

غير أن يوحنا پاليولوجوس والأدميرال فيلانتروينوس قادا حملة بحرية على خليج قولو ، وحطما الأسطول الفرنسي الذي كان راسياً في الخليج . وقد هلك في المعركة عدد كبير من الفرنجة ، وأسر عدد آخر منهم ، سيقوا إلى القسطنطينية . وفي تلك المرحلة من الصراع برز إلى قمة الأحداث مغامر فرنجي يدعى ليكاريو ، الذي ضرب حلفاً وثيقاً مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن ضد بني جلدته في المورة :

كان ليكاريو فارساً مقلساً من أصل وضعي ، وقد كان يقوم بالخدمة في بلاط جبرئيل الثاني دي فيرونا صاحب امارة يوبويا . وفي ذلك البلاط كانت تعيش قبيلة فرنجية هي فيليسا (Felisa) وهي أرملة نبيل يدعى ناززوتو . وقد وقع ليكاريو في غرام الأرملة ، وتزوجها في الخفاء . ولكن أقارب

فيليسا النبلاء استنكروا هذه العلاقة ، نظراً لوضاعة أهل ليكاريو ، وأجبروه على الهروب من البلاط وأن يترك فيليسا وشأنها . نزل ليكاريو في جزيرة كاريستوس وأقام في قلعة عرفت باسم « انيموبيلاي » (يوابات الريح) . وتجمع من حول ليكاريو الشريد نفر من الفرسان المفلسين المغامرين ، وراحوا يغيرون على القرى والحقول المجاورة لثيبيها ، واقتن اسم ليكاريو برعب زائد في المنطقة كلها . وإلى جانب الكسب عن طريق الإغارة ، كان ليكاريو يهدف في الدرجة الأولى إلى إلقاء الرعب في قلوب النبالة الفرنجية ، انضماماً لمشاعره التي أهينت على أيديهم . ولذا فقد كان طبيعياً أن يعرض ليكاريو خدماته على ميخائيل الثامن . وزوده الامبراطور بالمال والرجال ، ونجح ليكاريو في أولى ضرباته ، فسقطت في يده جزيرة أوريوس ثم « القلعة الحمراء » (Castel Rosso) التي كانت في يد بارون برغندي هو اوتون دي سيكون .

ولكي يكافئ ميخائيل الثامن حليفه ليكاريو أقطعته نفس الجزيرة التي لاقى فيها أشد الإذلال ، وهي جزيرة يوبويا ، على أن يمده بمائتي فارس ، ثم زوجه من نبيلة بيزنطية على درجة وافرة من الثراء والجمال . وقد زاد هذا الفضل الجديد من حماس ليكاريو ، فتابع نشاطه حتى سقطت في يده قلاع لأكوبا ، ولارمينيا ، ولاكلزيورا . ثم أعد العدة للهجوم على جزيرة سكوييلوس التي كانت في أيدي أمير فرنجي يدعى فيلبو جيزي ، وكان رجلاً مغروراً بنفسه ، وكان يردد دوماً سطرأ حفظه من أوقيد يقول «أنا رجل أقوى من مصائب الدهر » . ولكن ليكاريو — على ما يبدو — كان يدوره أقوى من فيلبو ومصائب الدهر جميعاً ، فقد كان صاحبنا يدرك أن تلك الجزيرة تعاني نقصاً شديداً في مياه الشرب . وعندما حل فصل الصيف القاطط ضرب ليكاريو الحصار حول الجزيرة ، واضطر الأهلون إلى التسليم ، ووقع البارون فيلبو أسيراً في يد ليكاريو ، فقيده بالأغلال وأرسله ذليلاً إلى بلاط القسطنطينية . ثم زحف ليكاريو جنوباً إلى خليج نافارينو واستولى على سيريجيو وسيريوتو .

لم يكن الفرنجة وحدهم هم الذين انزعجوا من جراء مغامرات ليكاريو الموقفة ، وإنما بدأت جمهورية البندقية هي أيضا تخشى على مصالحها في المنطقة ، وخاصة في جزيرة يوبويا ، التي كان ميخائيل الثامن قد أقطعها إلى ليكاريو . ولهذا فإنه عند تجديد معاهدة المحبة « بين ميخائيل الثامن والبندقية سنة ١٢٧٧ » أصرت البندقية على إدراج بند جديد في المعاهدة كالآتي : « إنه من حق البندقية أن تساعد سكان جزيرة يوبويا إذا ما تهددهم خطر من جانب صاحب الخلافة الامبراطور نفسه » (٦٥) .

لقد قويت شوكة ليكاريو ، خاصة بعد أن استخدم في جيشه فرقة من المرتزقة القطلان . وهجم هذه المرة على مدينة تجروبووت ، فهزم يني دوق آثينا وغالبية فرسان الفرنجة للدفاع عن المدينة ، ولكن ليكاريو قد انتصر عليهم جميعا ، وجرح الدوق في القتال وسقط من على جواده فوق أسيرا في أيدي ليكاريو الذي اقتاد الدوق وبقية الأسرى من النبلاء إلى القسطنطينية . وكان من بين الأسرى البارون جبرتو الثاني دي فيرونا ، الذي كان ليكاريو في القديم خادما في بلاطه . ويروى لنا مؤرخ معاصرة صورة للموقف في العاصمة البيزنطية : وقف جبرتو الثاني ذليلا على باب العرش الامبراطوري ، إذ كان ميخائيل الثامن متربعا على عرشه والوزراء والمستشارون يحيطون به من كل جانب . ويدخل ليكاريو حجرة العرش دون استئذان وقد تزين بالأرواب القصفاضة وثياشين الانتصار ، ويرمق عدوه البارون الأسير على أعتاب الحجرة بنظرات الاحتقار ، ثم يتطلع البارون فيلمح من الداخل ليكاريو وهو يهمس بشيء في أذن صاحب العباءة الأرجوانية . وهنا يزداد اضطراب الأسير النبيل ، وتسرع دقات قلبه نبضا عثيفا ، لقد كان هذا أكثر مما يطيقه جبرتو النبيل ، فيتقيا دما ويسقط ميتا ، من الغيظ !! (٦٦) .

(65) Enrico Dandolo, Cronaca Veneta, apud Muratori, Rerum Italicarum Scriptores, xli, 393.

(66) Nikephorus Gregoras, (Bonn ed.), i, 95-97.

أما عن يني دوق آثينا فقد دفع لميخائيل الثامن فدية مقدارها ٣٠.٠٠٠ موليّد من الذهب مقابل إطلاق سراحه ، وتوفي بعدها بعام واحد - سنة ١٢٨٠ م - فخلفه في حكم آثينا شقيقه ولیم یارون لیقادیا .

وعاد ليكاريو ، بطل تلك الأحداث ، من القسطنطينية واستقر في حصن منيع في بلدة فيلا (Filla) ، وكان الجميع يرهبون اسمه . ولم يجرؤ حتى رجال الدين في سهول ليلانتيا من الاقتراب « لمباركة مياه ارتيوزا الطاهرة » في أعياد الغطاس^(٦٧) . وقد عينه ميخائيل الثامن أدميرالا للأسطول البيزنطي ، كما أنعم عليه بلقب « الدوق الأكبر » . ومعونة الأسطول تمكن ليكاريو من أن يختم تاريخه بالاستيلاء على جزائر سيريفوس وسفينوس من أيدي الفرنجة . وبعدها يختفي اسمه تماماً من تاريخ تلك الفترة ، وكل ما نعلمه أن معامراً فرنجياً اسمه يوحنا دي لوكوفا من آثافي قد خلفه في الأدميرالية البيزنطية ، وسار الخلف على درب السلف في تخريب الأراضي البيزنطية التي كانت في أيدي الفرنجة .

عندما أحس ولیم فلها ردوان أمير آخايا بثقل المرض عليه استدعى زوجته وابنتيه وكبار أفضاله إلى قلعته المفضلة كالاماتا ، وكتب وصيته الأخيرة . ونصت الوثيقة على أن تؤول الوصاية على زوجته وابنتيه إلى شارلس من آنجو ملك صقلية ونابلي ، وعلى أن يقوم جان دي شوديرن الكونتسابل الأكبر وبندكت من بتراس كبير الاساقفة واسقف مودون بالاشراف على تنفيذ مواد الوصية ، فكان على الأول أن يتولى إدارة شئون الإمارة حتى يتمكن شارلس من آنجو من تعيين نائب له عليها . وطلب فلها ردوان أن تحترم جميع هباته للأديرة الفرنجية واليونانية ولبعض الأفراد ، وأوصى كذلك أن يدفن جثمانه في كنيسة سان جيمس في اندرافيدا العاصمة ، ليرقد بجوار والده وأخيه . وتوفي ولیم فلها ردوان في أول مايو سنة ١٢٧٨ . وصار

» batizur la Crol al Fonte. « : 136، 122-27، 119-120، op. cit.، Sanudo (67)

بتناوب الصلاة على روحه ووالده وأخيه أربعة من الكهنة عينوا خصيصاً
لهذه المهمة في كنيسة سان جيمس حتى « يرقد ثلاثتهم في سلام »
(Requiescant in pace)

بعد وفاة ولیم قلها ردوان صارت الكلمة العليا في بلاد اليونان إلى بيت
آنجو الفرنسي . وفي بداية الأمر كان شارلس قد طلب من بي دوق أكينا
الاعتراف به سيداً على كل الفرنجة في بلاد اليونان ، وأوقف جاليران دافري
سنكال صقلية للاشراف على شئون آخايا فأثابا عنه . ولما وصل السنكال إلى
بلدة جلارنترا جمع البارونات والفرسان وكبار رجال الدين في الإمارة
ليطلعهم على أوامر سيده : طلب شارلس من البارونات أن يؤدوا بيمين
الولاء والطاعة لمثله السنكال نيابة عنه ، وعلامة على خضوعهم أفصالا
اقطاعيين . ولكن بندق كبر أساقفة بتراس رد على السنكال بأن هذا
المطلب يمثل خرقاً للتقاليد الاقطاعية ، لأنه يتحتم على الأمير الجديد للأرض
أن يقدم بنفسه لحما ودعا لكي يقسم أمام الله والناس ويدا على الأناجيل
بأن يحكم وفقا للعرف والتقاليد وبأن يحترم شرف وحقوق أفصاله . وأكد
بندق أن فرسان المورة يفضلون الموت على احتقار تراث الآباء . واضطر
السنكال أمام هذا الموقف إلى قبول الحل الوسط ، فطرح مسألة بيمين
الولاء والطاعة جانباً ، واكتفى بأن يقسم الحاضرون قسماً جماعياً باحترام
حقوق شارلس وورثته إن هو أحترم حقوقهم بدوره .

وكان أول من خرق هذا القسم السنكال نفسه ، إذ قام بطرد بعض
الأفصال من أماكنهم القديمة في إدارة شئون الإمارة . وازداد موقف السنكال
سوءاً عندما اشتبك مع البيزنطيين في حرب عادت عليه بالخسارة الفادحة
والهزيمة . كذلك تنمر الفرنجة لأن رجال السنكال كانوا يغيرون على بعض
القرى اليونانية الصديقة للفرنجة . وتوجهت سفارة من بارونات الفرنجة إلى
نابلي للشكاية من سلوك السنكال . فعزله شارلس وعين له خلفاً مارشال
صقلية المدعو فيلبو دي لاجونسا . ولكن فيلبو فشل هو الآخر فيما فشل فيه

جاليران في آخايا . وأمام هذا الفشل أناب شارلس عنه واحداً من بارونات آخايا نفسها هو جي دي لانرموي صاحب كالاتندرتزا للإشراف على شئون الامارة ، ولكن جي كان ضعيف الشخصية عند أقرانه الكبار ، فميت مهمته بالفشل أيضا .

وفي سنة ١٢٨١ م وقع شارلس من آنجو معاهدة مع جمهورية البندقية عرفت بمعاهدة أورفيتو لشن حملة مشتركة ضد القسطنطينية بغية استردادها للفرنجة . وتحدد عام ١٢٨٣ لتنفيذ المؤامرة التي كان سيساهم فيها فيليب الأول من كورثيناى زوج ابنة شارلس بثمانية آلاف من القربان وخبولهم . وتعهدت البندقية بالمشاركة بأربعين سفينة . وقد شملت هذه المعاهدة بنداً يؤكد بأنه « لن يكون هنالك سلام ولا مهادنة مع العدو ميخائيل الثامن ولا مع ورثته » .

ولكن فطنة ميخائيل الثامن قد أحبطت هذه المؤامرة الخطيرة : فقد نجح الأدميرال يوحنا دي لوكافو في تعطيم بعض السفن التي أعدتها البندقية للحملة . ثم حلت الكارثة الكبرى بشارلس من آنجو في صقلية ، على حين فجأة ، وكانت أحداث ليلة واحدة في بالرمو كفيلة بالقضاء على كل آمال بيت آنجو . تلكم هي الاحداث المعروفة في التاريخ باسم أحداث « صلوات العشيبة الصقلية » (Sicilian Vespers) .

الفصل الخامس

صقلية وبیزنطة في عصر يوليوس غوس

«C'est l'antre du lion, ceux qui y pénètrent n'en sortent plus.»

(Radolphe de Habsbourg)

بعد انهيار الامبراطورية الرومانية تحت وطأة الغزوات الجرمانية المتبربرة ،
مرت جزيرة صقلية بقرن كامل من الاضطراب فكانت عرضة للغزو والنهب من
جانب موجات المتبربرين المتعاقبة وبخاصة على يد الوندال . وفي القرن السادس ،
وفي عام ٥٣٥ م على وجه التحديد فرض الامبراطور جستينيان العظيم (٥٢٧ -
٥٦٥) سيطرته الكاملة على الجزيرة ، فبعد أن نجح القائد المرموق بلزاريوس
في استرداد صقلية أصبحت سيراكيوز نقطة الارتكاز البيزنطية في الغرب
الأوربي . ولقد كان الأثر البيزنطي واضحاً في ملامح الجزيرة الحضارية حتى
إن اللسان اليوناني ظل سائداً فيها لمدة ثلاثة قرون متعاقبة . كما أن كنيسة صقلية
كانت تستخدم نفس الطقوس البيزنطية ، إذ كانت خاضعة لاشراف بطريركية
القسطنطينية . ولما أن اشتد الضغط على الدولة البيزنطية في القرن السابع على آسيا
الصغرى والبلقان اضطرت السلطات إلى سحب أسطولها وقواتها من أواسط
حوض البحر الأبيض المتوسط ، فأخذ النفوذ البيزنطي في صقلية يتضاءل على
التدريج .

وفي سنة ٨٢٧ م بدأ الفتح العربي لصقلية على يد أمراء القيروان من الأغالبة ، وفي سنة ٨٣١ دخلوا بالرمو ، وفي سنة ٨٣٥ دانت لهم بانتلريا ، وفي سنة ٨٤٣ فتحوا ميسينا بمساعدة أهالي نابلي ، وفي سنة ٨٥٩ استولوا على إيننا (Enna). وفي نهاية القرن التاسع كان البيزنطيون قد أخاوا الجزيرة تماماً من قواهم ، فاستولى الأغالبة على تاوور مينا سنة ٩٠٢ ، ثم على رومتا (Rometta) سنة ٩٦٥ . وبهذا دانت الجزيرة كلها للعرب ، الذين ظلوا يحكمونها لمدة قرنين ويزيد . وقد طعم العرب جزيرة صقلية بعناصر حضارية بارزة في الدين والقانون والآداب والفلسفة والعلوم . وقد أحترم العرب الحرية الدينية للعناصر المختلفة من أهل الجزيرة من بيزنطيين ولبارد ورومان بل وتثار وزنوج . فكانت صقلية يحكم موقعها وتباين أجناسها نقطة التقاء بين الحضارة الإسلامية والحضارة البيزنطية والحضارة اللاتينية . وقد كان الأثر العربي الحضاري عميقا في تربة الجزيرة حتى إن اللغة العربية ظلت قائمة بعد الغزو النورماندي للجزيرة بقرن كامل ، ولا زالت اللغة الصقلية حتى اليوم تحمل ماثات من الألفاظ العربية البحتة .

وفي سنة ١٠٦٠ م بدأ الغزو النورماندي لصقلية على يد الأخوين المغامرين روجر وروبرت من بيت تانكرد دي هوتفيل النورماندي . وبعد سلسلة من الحروب واللصوصية سقطت آخر المعاقل العربية في صقلية وهي بلدة نوتو في أيدي روجر ، وذلك في سنة ١٠٩١ فدانت الجزيرة كلها لسلطانه .

وقد شوه روجر الملامح العربية والبيزنطية للجزيرة ، فأجبر الأهاليين على اعتناق المذهب الروماني وعلى ضرورة استخدام اللسان اللاتيني ، وكان عليهم أيضا أن يتشعوا بأساليب الحضارة الفرنسية التي تربي روجر في أحضانها في دوقية نورمانديا . وظل النورمان يحكمون الجزيرة بقبضة من حديد من سنة ١٠٩١ حتى وفاة وليم الثاني سنة ١١٨٩ . ولما لم يترك وليم وريثا ذكرا ليخلفه على عرش صقلية ، ظهر له ابن أخ غير شرعي هو تانكرد الذي توج نفسه ملكا على

الجزيرة . وقد تعرض تانكرد — آخر الملوك النورمان في الجزيرة — لمهانة كبرى على يد ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا أثناء عبوره إلى الشرق على رأس الحملة الصليبية الثالثة . ويرجع هذا الموقف إلى أن تانكرد كان قد ألقى بأرملة ولیم الثاني في السجن ، ولم تكن تلك الأرملة سوى جونا شقيقة ريتشارد . وفي سنة ١١٩٤ توفي تانكرد ، ولم يبق وريث شرعي لعرش الجزيرة من البيت النورماندي سوى كونستانس ابنة روجر الثاني . والمعروف أن ولیم الثاني كان قد زوج كونستانس (عمته) إلى هنري السادس ملك ألمانيا الذي كان عمره وقتها أقل من نصف عمرها تقريبا . بعد وفاة تانكرد زحف هنري السادس على مسينا فلقى ترحيبا شديدا من الأهالي ، ويقال إنهم كانوا يركعون أمام موكب العاهل الألماني حتى تلمس جياهم تراب الأرض . وتوج هنري السادس ملكا على صقلية في حفل مهيب في بالرمو في عيد ميلاد ١١٩٤ م .

غير أن دوام الحال من المحال ، فسرعان ما تبدلت المشاعر وثار الأهليون ضد الألمان ثورة عارمة . ولكن هنري سحق الثورة وتكلل بالثوار في قسوة بالغة . ويزوي أن وسائل التعذيب التي استخدمت ضد ثوار صقلية كانت وحشية تماما ، فمنهم من خصي ومنهم من أحرق في الزيت المغلي . ويقال أيضا في هذا الصدد أنه عندما ألقى هنري القبض على نبيل من بيت هوتفيل النورماندي له يد في الثورة ، أعد له تاجا من الحديد الملتهب وألبسه له على رأسه .

وبينما كان الإرهاب يدور على قدم وساق في الجزيرة أصيب هنري السادس بحمى الملاريا وتوفي وهو لا يزال في الثانية والثلاثين من العمر . وقد خلفه على عرش الجزيرة ابنه فردريك الثاني ، الذي كان طفلا لم يتجاوز الثالثة من عمره ، كان تحت وصاية والدته كونستانس النورماندية الأصل . ولمسا توفيت كونستانس سنة ١١٩٨ آلت الوصاية على الملك الطفل إلى العدو الألد لآل الهوهنشتاوفن ألا وهو البابا انوسنت الثالث ، الذي كان يخطط لحرمان فردريك من ميراث آباءه في ألمانيا . وفي سنة ١٢٠٨ اضطلع فردريك الثاني

بمهام الحكم في صقلية . وبينما سمح فردريك بحكم ألمانيا وفق النظم الإقطاعية التي تجعل من الملك مجرد « الأول بين الأقران » (Primus inter pares) ، إلا أنه أصر على حكم صقلية كأغسطس وقبصر ، حتى إن العملة التي سكها كانت تعرف باسم « أغسطسالس » (Augustales) . وفي سنة ١٢٢١ عقد فردريك برلمانه وأصدر قراراته التي حرمت الميسر وأجبرت المواطنين على العودة مبكرين إلى بيوتهم ، وقررت على اليهود أن يرتدوا لباسا خاصا ، وقضت بطرد بنسات الليل إلى خارج أسوار المدن مع حرمانهن من دخول الحمامات العامة مع السيدات الطيبات ، كما حثت تلك القوانين على منع التزاوج من الأجانب . وفي سنة ١٢٣١ أصدر فردريك مقننة عرفت باسم « الكتاب الأغسطالي » (Liber Augustalis) الذي ضم مختصرا للقوانين النورماندية السابقة إلى جانب ما أضافه العاهل الألماني من أبعاد أخرى تتمشى مع الحكم المطلق الذي كان يصر عليه آل الهوهنشتاوفن . ومع أن روجر الأول كان قد سمح للجماعات اللومباردية والبيزنطية والعربية والفرنجية من أهل الجزيرة بحق التقاضي وفقا لقوانين كل من هذه الجماعات الخاصة ، إلا أن فردريك قد أصر على احتكام جميع سكان الجزيرة لقانون واحد . وتكشف هذه المقننة الأغسطالية عن قناعة فردريك بأن حكمه كملك لصقلية (Regnum) مستمد من التفويض الإلهي مباشرة ، ومن ثم فإنه كان على رجال الدين وسيدهم البابا ألا يحشروا أنوفهم في الأمور العلمانية . وخول التنازع لحامله أن يفصل في محكمة البلاط في أي من القضايا التي ترفع إليه من أية هيئة أو فرد في المملكة . وحرّم القانون نفسه على الرعية حمل السلاح . وحذر الموظفين من قبول الهدايا من الشعب ، ونص على معاقبة رواد الخانات والمتسكعين ، وعلى قطع أنف الزانية ، وعلى جلد الزوج الذي يتستر على خيانة زوجته . ومنع القانون وسائل التعذيب اللهم إلا ضد وضيعي الأهل والمرترقة من المأجورين (Bravi) الذين كان البارونات يستخدّمونهم لإرهاب أهل الريف وابتزاز أموالهم . كما حرم القانون ممارسة مهنة الطب إلا لخريجي الكليات المتخصصة في سالرنو من

الذين حصلوا على ترخيصات بممارسة المهنة . وسمح القانون لليهود بممارسة الربا بربح قدره عشرة في المائة ، أما بالنسبة لبقية الرعية فقد كان الربا جريمة كبرى يحاكم عليها القانون . وقد احتكر فردريك المناجم المعدنية في صقلية كلها ، وكذلك كانت الحال مع صناعة الصباغة وتجارة الملح .

وكان بلاط فردريك صالوتا عامراً بالأدباء والشعراء والفلاسفة والجغرافيين من العرب والبيزنطيين ، ويقال أيضاً ان الأمبراطور كان معجباً بالرقص الشرقي وكانت ببلاطه جوقة من فئات الشرق لإمتاع الضيوف المرموقين بأفانينهم . وكان الحرس الخاص المفضل لدى فردريك مكوناً من المسلمين الذين كانوا يعسكرون في بلدة لوكيرا (Lucera) في أبوليا . والمعروف أنه عندما توفي فردريك الثاني قد كفن في عباءة مطرزة بحروف عربية كوفية ، أغلب الظن تلبية لوحيته الأخيرة . وكان البابوات — وهم ألد أعداء فردريك — يشيرون إليه على أنه « السلطان المعمد » . وقد أنزل عليه البابوات اللعنة والحرمان تبعاً ، لأنه كان يسخر بهم جميعاً ويتهممهم علانية بأنهم « دجالون » وأبعد ما يكونون عن الأمور الروحية . ولم يكن فردريك متعصباً ولا مذهبياً ، وإنما كان متسامحاً صادقاً مع كل الديانات والمذاهب ، وثقيل إنه حارب الهرطقة، فالحق أنه ما كان يحاربهم بواعز ديني متعصب ، وإنما لأنهم كانوا يمثلون مظهراً من مظاهر العصيان ضد « المعين من قبل الله على الأرض » للحكم . وقد أصر فردريك على أن يؤدي رجال الدين الضريبة كاملة ، شأنهم في هذا شأن سائر أفراد الرعية .

وكان فردريك شغوفا بالرياضيات والفيزياء والتنجيم ، ولقد روجت عنه دوائر البابوية الحاقدة أنه مشعوذ وساحر وزنديق وغير نظيف ، ودللوا على هذه الأخيرة بأنه يرتاد « الحمام » عدة مرات كل يوم ! وقد كان لهذه الحملة المسعورة صداها فوجدت آذاناً تصدق ما يبثه اللاثيران في عصر الغيبات والإيمان المطلق الأعمى ، فحتى داني قد أنزل ما يكل سكوت ، عالم التنجيم في بلاط

فردريك ، في جهنم مع زبانية السحر الأسود والمشعوذين ، مع أن سكوت كان أستاذاً عالمياً في الفلسفة وعلوم الحيوان والترجمة عن العربية واليونانية ، وكان فاهماً جيداً للعلاقاتين أرسطو وابن رشد ! وكان فردريك يمتلك حديقة حيوان يصطحب حيواناته التي لا تحصى في رحلاته ، الأمر الذي كان يشكل مشكلة بالغة للبلاد المضيفة له ، لأن الحديقة احتوت فيما قد حوت فهوذاً وأسوداً وفيلة وصقوراً . وقد عكف فردريك على دراسة دقيقة للصقور لمدة ثلاثين عاماً ، وكتب عنها بحثاً شيقاً باللاتينية .

توفي فردريك الثاني سنة ١٢٥٠ م ، وكان قد أمضى أخريات أيامه في قلعة المفضلة في أبوليا محاطاً بحرسه وأساتذته المسلمين ، ودفن جثمانه في بالرمو العاصمة الصقلية .

تقف وفاة الأمبراطور فردريك الثاني في ديسمبر ١٢٥٠ علامة « مميزة » في تاريخ إيطاليا بل في تاريخ أوروبا كلها . فبعد رحيله عن مسرح الأحداث ظهرت حماسة دفاقة لدى الإيطاليين لتكوين جمهوريات المدن المستقلة لكي لا تنجر في ثانية في الصراع الأزلي بين البابا والأمبراطور . كما وضحت النزعات الفردية في مدن الشمال الإيطالي نحو الحكم الاستبدادي الفردي : في فيرونا وبادوا وكريمونا وبافيا وفرارا وديلاتوري وميلانو . وحتى في روما نفسها ظهر زعيم شعبي بولوني الأصل ، هو برانشالوني ديجلي اندالو (١٢٥٢ — ١٢٥٨) ، راح يدعو للتحرر من سلطان البابوية والأمبراطورية جميعاً .

أما في صقلية ، التي كان النورمان والألمان قد عملوا على تأصيل الحكم الملكي فيها ، فإن الأمور قد اتخذت مجرى مختلفاً تماماً . فبعد وفاة فردريك الثاني ادعى البابا أن صقلية ملك لسيادة البابوية بعد أن تحررت من « محالب الموهنتاوفن » . وراح البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤) يبحث عن حاكم مطيع للجزيرة على أن يكون « فصلاً » للكروسي الروماني ، متتهزاً فرصة عدم توافر وريث شرعي من الموهنتاوفن على أرض الجزيرة (in situ) .

غير أن كونراد الرابع الإبن الشرعي لفردريك الثاني زحف من وراء جبال الألب ونزل على إيطاليا في يناير ١٢٥٢ ، وبدأ في استرداد أراضي والده بقوة السيف . فسارع البابا انوسنت الرابع إلى تكثيف مفاوضاته مع أمراء كانوا يتطاعون إلى العرش الصقلي ، وعلى رأس هؤلاء شارلس من أنجو شقيق لويس التاسع من فرنسا ، وأميران من البيت الملكي الإنجليزي هما ريتشارد من كورنوال شقيق الملك هنري الثالث ، وادموند ولي العرش الإنجليزي . وبينما كانت المفاوضات تدور بين البابا والأطراف الطامعة جاءته الأنباء ب وفاة كونراد (مايو ١٢٥٤) .

وهنا ظهر على مسرح الأحداث ابن غير شرعي لفردريك الثاني هو مانفريد صاحب تارانتو ، الذي طالب بعرش صقلية لنفسه ميراثاً عن أبيه ، بعد وفاة الوارث الشرعي كونراد الرابع . وحاول البابا مراوغة مانفريد بأسلوب الدبلوماسية الماكرة ولكن مانفريد لم يستجب للبابا وهاجم الجيش البابوي في أبوليا وألحق به الهزيمة . ووصلت أنباء الهزيمة إلى البلاط البابوي بينما كان انوسنت الرابع في نزعه الأخير (ديسمبر ١٢٥٤) . ولما اعتلى أسكندر الرابع العرش البابوي أرسل جيشاً جديداً لقتال مانفريد ، ولكن الجيش البابوي مني بهزيمة أخرى في أبوليا سنة ١٢٥٥ .

ولم يجرؤ أحد في إيطاليا على الوقوف في وجه مانفريد ، الذي أصبر على استرداد جميع الأراضي التي كانت تخضع لوالده في طول وعرض إيطاليا . ثم عقد مانفريد حلفاً مع جمهورية جنوة سنة ١٢٥٧ لتأمين أراضيهِ من عدوان بحري في الجنوب الإيطالي وفي صقلية . وفي أغسطس ١٢٥٨ توج مانفريد ملكاً على صقلية في العاصمة باليرمو . وبعدها هجم مانفريد على انكونا التي كانت كانت تخضع للبابوية . وقد وجد مانفريد أعواناً مخلصين له في شمال إيطاليا من بين عائلات باللاتشينو واستنسي ، كما أنه عقد صداقات وطيدة مع عائلة سبيتا في توسكانيا .

أثارت هذه التحركات غضب فلورنسا ، التي كانت على عداوة قديمة مع الهوهنشتاوفن ، فزحف مانفريد عليها وألحق بها هزيمة منكرة عند مونت ابرني في سبتمبر ١٢٦٠ . وبعد هذا الانتصار دانت توسكانيا كلها لمانفريد ، وعلا اسم الهوهنشتاوفن من جديد^(٦٦) . ولكي يلقم البابا حجراً ، دفع مانفريد نفراً من أصدقائه في روما على انتخابه سيناتوراً في مجلس الشيوخ الروماني سنة ١٢٦١ . وفوق هذا كله وثق مانفريد علاقاته بقوة أراغون الفتية في شبه جزيرة ايبيريا بأن زوج ابنته كونستانس من الأمير بطرس أكبر أبناء جيمس الأول ملك أراغون (يونيو ١٢٦٢) .

غير أن مستقبل مانفريد قد تحدد مداه عندما اعتلى العرش البابوي رجل فرنسي هو أوربان الرابع ، في سنة ١٢٦١ . كان أوربان فرنسياً متحمساً لفرنسيته ، وقد بذل كل ما في استطاعته لكي يخضع وسط وجنوب إيطاليا للتفوذ الفرنسي على حساب حقوق آل الهوهنشتاوفن . ولذا فإن أوربان أوقف المباحثات التي كان سلفه قد بدأها مع هنري الثالث ملك إنجلترا « ذلك الملك الذي كانت شهرته أقوى من أسنانه » ، والتفت إلى شارلس من آنجو شقيق لويس التاسع ملك فرنسا ، وعرض عليه تاج صقلية في يونيو ١١٦٣ . ووافق « القديس » لويس التاسع على العرض المقدم من البابا ، ولم يشعر « قداسته » بأية غشاضة في أن يقوم شقيقه باغتصاب عرش لا حق له فيه ، وكان « القديس » يعلم أن كونراد الرابع قد ترك صبيًا صغيراً في ألمانيا اسمه كونرادين ، هو صاحب الحق الشرعي في التاج الصقلي دون سواه .

اتفق البابا وشارلس على أن يدفع الثاني للأول خمسين ألفاً من الماركات بعد غزوه لصقلية مباشرة ، ثم عشرة آلاف أوقية ذهبية تدفع كل عام للخزانة البابوية ، لأن صقلية « إقطاع بابوي » وفق منطق أوربان الرابع . وكان شارلس يحكم نفوذه القوي في پروفانس ومرسيليا يملك الامكانيات

» Lo strazio-e'l grande scempio, Che fee l'Arbin colorata in rosso. « (68)

والأسطول لخدمة حملته على صقلية . وقد عزز من موقفه أن حرض البابا واحداً من الكرادلة في روما على انتخاب شارلس عضواً في مجلس الشيوخ سنة ١٢٦٣ . كذلك عقد شارلس عدة أحلاف مع مدن الشمال الإيطالي : مع الماركيز دي مونت فرات في بيدمونت ، ومع ميلانو ومدن لمبارديسا

هجم مانفريد على المقر الشوي للبابا في بلدة أورفيتو ، فذعر أوربان الرابع ونادى بالجهاد ضد خصمه فيما يمكن تسميته « بصليبية أورفيتو » . ونجحت صرخات البابا فتصدى جيشه وأتباعه بجيش مانفريد وأنقذوا البابا من الهلاك المحقق . ووقت وفاة أوربان الرابع كان حليفه شارلس من آنجو قد أتم استعداده لغزو صقلية من يد مانفريد . ولقد كانت لشارلس يد في الانتخابات التي تمت بعد وفاة أوربان الرابع ، واختير للعرش البابوي كلمنت الرابع ، وهو فرنسي أيضاً ، وكان قد خدم سابقاً في بلاط لويس التاسع .

وصل شارلس إلى روما في مايو ١٢٦٥ ، وهناك تم تنويجه ملكاً على صقلية . وبادرت فلورنسا بمباركة هذا التنويج وأقرضت الملك المتوج مائتين ألفاً من الليرات ، كذلك أقرضه التجار الرومان خمسين ألفاً ، كما ساهم البابا ببعض من المال من جيبه الخاص . وأعلن شارلس أنه مقدم على «الحاق خصمه إلى جهنم أو دخوله هو إلى النعم» .

التقى جيش شارلس بقوات مانفريد عند بنفتو في ٢٦ فبراير ١٢٦٥ ، ودارت الدائرة على مانفريد الذي قتل في ميدان القتال . وهكذا دانت صقلية للفتح الفرنسي الجديد ، الذي وزع أراضي الجزيرة على أتباعه الفرنسيين من فرسان بروفنسال .

غير أن كونرادين زحف على رأس رجاله سنة ١٢٦٧ لمقاتلة شارلس من آنجو واسترجاع صقلية . ولقد وجد الأمير الألماني تأييداً لقضيته في الشمال الإيطالي ، كما رحب به الأهالي في روما وأقاموا له أقواس النصر تحفه الفتيات إلى مبنى الكابيتول .

وقد اضطر البابا كامنث الرابع إلى الفرار إلى بلدة فيتربو ، وهناك وصف كونرادين الذي كان مجرد صبي في الخامسة عشرة من عمره بأنه « الحمل الذي سوف يساق إلى جزاره » . وتحققت نبوءة البابا ، ففي أغسطس ١٢٦٨ قضى شارلس على قوات كونرادين في واقعة تاجليا كوتزو (Taglia Cozzo) ، وفر الملك « الطفل » إلى نابلي حيث قبض عليه وحكم عليه بالإعدام . وكانت آخر كلماته : « يا له من خير محزن لوالديني النعسة » ! ! .

والإيطاليون شعب كل منتصر جديد : فلقد سارع أهل توسكانيا بتنحية شارلس وبالإعتراف به « ناثيا امبراطوريا » على جميع مدائنهم ، كما أن شعب روما انتخبوه للسيناتورية في مجلسهم الموقر لمدة عشرة أعوام متتالية . ولما أن توفي البابا كلمنت الرابع ظل العرش البابوي شاغراً لأكثر من ثلاثة أعوام (نوفمبر ١٢٦٨ إلى ديسمبر ١٢٧١) ، فصارت الأملاك البابوية امتداداً لنفوذ سيد صقلية الفرنسي . وظل البابوات في روما بعد ١٢٧١ يرهبون قوة شارلس من آنجو حتى كان عام ١٢٧٧ ، عندما اعتلى نيقولا الثالث العرش البابوي (١٢٧٧ - ١٢٨٠) .

كان نيقولا الثالث من زعماء الكرادلة المناهضين للنفوذ الفرنسي في روما بوجه خاص وفي إيطاليا بشكل عام . ولدينا قصيدة كتبها كاهن فرنسي سنة ١٢٧٠ يستشف منها أن أمور الدين والدنيا (الإمارة والكهانة Regnum et Sacerdotium) قد انتقلت من أيدي الرومان إلى أيدي الفرنسيين (٦٩) . وكان نيقولا الثالث من أبناء أسرة أورسيني الإيطالية العريقة في تاريخ النبالة وفي سجلات البابوية أيضاً ، وكانت تملك أملاكاً إقطاعية عريضة في جنوب روما . ولقد عمل نيقولا على أن يدخل عضواً في مجلس الشيوخ مباشرة عند انتهاء عضوية شارلس التي دامت عشرة أعوام كاملة ، كما كانت له يد في استصدار قرار

(69) G. de Luca, « un formulario della cancelleria francescana e altri formulari tra il XIII et XIV secolo », Archivio per la Storia della Pietà, I (1951).

يمنع الحكام العلمانيين من السيطرة على الشؤون الخاصة بالمدينة . كذلك قام بتعيين واحد من أبناء عمومته عميدا للولاية البابوية شمالي روما ، كما أوقف اثنين من أتباعه ، من بينهم أحد الكرادلة ، للإشراف على روماننا جنوب شرقي وادي البو . ثم عين أخاه ناثيا له ، وأصر على الإقامة داخل أسوار المدينة ، معلناً بذلك أنه قد عقد العزم على تحرير روما من محالب بيت آنجو . ولكن الموت فاجيء تيقولا الثالث سنة ١٢٨١ ، واعتلى العرش البابوي رجل فرنسي هو مارتن الرابع (١٢٨١ - ١٢٨٥) ، الذي كان قد خدم من قبل في بلاط لويس التاسع . وكان مارتن الرابع فرنسيا متعصبا لفرنسيته إلى حد بالغ ، فانتحز تماما إلى شارلس من آنجو ، ولقد أثر عنه قوله : « وددت لو كنت لقلقاً والألمان ضفادعا في مستنقع فألتهمهم جميعا ، ولو أنني كنت كراكياً في بحيرة والألمان أسماكاً لايتلعتهم أيضا »^(٧٠) . كما أن ألمانيا معاصرا كتب عنه يقول : « لقد وزع مارتن الرابع كنيسة الله على الفرنسيين ، وكان ينبغي أن يحكم العالم كله بالأسلوب الفرنسي »^(٧١) . والواقع أن مارتن الرابع قد اختار نوابه من بين مستشاري شارلس من آنجو . ولما أن اختير عضوا في السيناتو ، تنازل عن هذه العضوية لشارلس ، فمسخ بهذا قرار سلفه الراحل . كما أنه هجر مدينة روما واستقر في أومبريا في حماية كتيبة فرنسية من جند آنجو . وقد كان لهذا الموقف المنحاز لبيت آنجو من جانب البابا صدها العميق في آداب تلك الفترة ، فقد كتب جان دي ميونج (Meung) في قصيدة له بعنوان *Roman de la Rose* يقول :

(70) *Continuatio Vindoboniensis*, in *Monumenta Germaniae Historica Scriptores*, IX, 712-13.

(71) « *Notitia Saeculi* », in Alexander of Roes, *Schriften*, ed. H. Grundmann and H. Heimpel, 162-3.

لقد هلك مانفريد بفعل الخيانة
ووقعت الأرض لقبضة آل آنجو
ومن ذا الذي يعرف على التحدي؟ (٧٢)

وبعد أن ثبت شارلس من آنجو أقدامه في صقلية وإيطاليا ، التفت إلى مشروعاته الكبرى في حوض البحر الأبيض المتوسط . ومن هنا كان صدامه مع الدولة البيزنطية . والمعروف أن شارلس قد اشترى من ماري الأتطاكية «مدموازيل دى جروز اليم» التاج الذي ورثته عن جودفروا دى بويون .

كان ميخائيل الثامن باليولوجوس قد قاسى الأمرين من جانب فرجة آخايا والبيزنطيين الانفصاليين في إيروس ، وأيضاً من جانب مانفريد ملك صقلية . وبعد مقتل مانفريد اضطلع شارلس من آنجو بالخطط العدوانية ضد بيزنطة ، وكان هدف الملك الفرنسي لصقلية الحصول على تاج الدولة البيزنطية ، الذي كافح باليولوجوس في سبيله كل الكفاح حتى توج أعماله باسترداد القسطنطينية من أيدي اللاتين سنة ١٢٦١ . ولكي يحقق شارلس أغراضه عمل على استخدام البابوية مخلصاً في الترويج لحملة صليبية يتستر تحت رايتها للانقضاض على القسطنطينية . ومن هنا كان تحرك ميخائيل الثامن ونقاربه من البابا جريجوري العاشر ، ثم مشاركة سفراءه في مؤتمر ليون ١٢٧٤ لتوحيد كنيسة بيزنطة وروما . غير أنه باعثلاء مارتن الرابع العرش البابوي ، لم تعد البابوية تهتم بمصير ميخائيل الثامن ولا بدولته ، وتجاهلت جهوده وتنازلاته الخطيرة التي ألبت عليه شعبه وكنيسته بسبب موقفه في مؤتمر ليون ١٢٧٤ .

ولكني يجابه ميخائيل الثامن باليولوجوس العدوان الصليبي الجديد الذي تتر تحت رايته شارلس من آنجو ، اتصل ببطرس الثالث ولي العهد في مملكة أراغون . وكان بطرس زوجاً لكونستانس ابنة مانفريد ، الذي قتل على يد شارلس من

(72) Roman de la Rose, ch. 42 (tr. F. S. Ellis).

آنجو . والمعروف أن كونستانس عندما أُنْباء مقتل أبيها قد أصرت على أن تلقب « بملكة صقلية » . كما أن بطرس قد رحب في بلاطه بالفارين من صقلية من وجه شارلس من آنجو ورجاله ، ومن بين هؤلاء الفارين كان كونراد لانكيا ، الذي كان قريبا للأميرة كونستانس .

والواقع أن الحكم الفرنسي لصقلية قد أثار غضب أهلها ، ومهد ذلك للثورة ضد ذلك الحكم الإرهاني . فلقد دمع شارلس خصومه في الجزيرة بالهرطقة لكي يتخلص منهم بتلك الذريعة . وكان ضباطه أشد قسوة على الأهليين من القسوة ذاتها ، على حد تعبير المعاصرين (٧٣) . ولما ثارت مدينة أوجستا ضد الحكم الفرنسي ، قام الفرنسيون بتسوية البلدة بالأرض وقتلوا أهلها جميعا . ولكي يدفع شارلس نفقات فرسانه ، قام بمصادرة أملاك الأهالي وأقطعهم لفرسانه المفلسين . كما جلب عددا من الفرنسيين ووطنهم في الجزيرة . ولم يبق من بارونات الجزيرة من يملك أرضا إلا ذلك النفر الذين دفعوا لشارلس رشوة دسمة . وسيطر على جهاز حكم الجزيرة موظفون فرنسيون وإيطاليون ، وكلاهما عنصر كزبه لدى الصقليين (٧٤) . وهكذا كان حكم آنجو لصقلية أشبه ما يكون بغرس حامية عسكرية وسط بحر من الغضب . وزاد شارلس الطين بلة بأن أدخل في الجزيرة نظام السخرة الفرنسي (Corvée) . وحرّم شارلس على الصقليين الرعي في الغابات الملكية ، بينما كان من حق الملك الانتفاع بغابات الآخرين . وتروى الروايات أن كثيرين من بارونات صقلية قد أذلوا وأجبروا على خدمة الملك الفرنسي وضيوفه على المائدة ، بل كان على بعض هؤلاء البارونات حمل نفاية الطعام إلى المطابخ وغسلها . ونسمع أيضا عن فتيات

(73) Nicolas Specialis, in Muratori, Vol. XIII, p. 924 : « Quae imnia et graviora quidem, ut arbitror, patienti animo Siculi tolerassent, nisi alienas foeminas invasissent. »

(74) See Smith D.M. A. History of Medieval Sicily.

من أسر صقلية عريقة أجبرن على الزواج من فرنسيين وضييعي الأصل وعلى درجة مخيفة من الانحلال الخلقي .

وجد بطرس الثالث وميخائيل الثامن أسباب الثورة في صقلية مهيأة تماماً ضد الحكم الفرنسي البغيض . وفي سنة ١٢٧٦ إعتلى بطرس الثالث عرش أراغون خلفاً لوالده جيمس الأول ، وأخذ يعد العدة لمصارعة شارلس من آنجو . وكان بطرس صاحب ثأر ضد شارلس الذي قتل حماءه مانفريد ، كما أنه كان يتطلع لتاج صقلية لحساب زوجته كونستانس . كذلك كان بطرس على عداوة قديمة مع شارلس على ملكية بعض الأراضي في بروفانس وغسقونيا وسردينيا . وقد ربح بطرس بالفارين من صقلية وعلى رأسهم كونراد لانكيا والدعمو دي لنتيني ويوحنا من پروكيدا . وكان يوحنا أستاذاً للطب ، وهو الذي كان يشرف على صحة فردريك الثاني ، ثم عمل مستشاراً لمانفريد ، ولما صودرت أملاكه على يد شارلس من آنجو فر إلى بلاط أراغون يطلب الحماية من بطرس الثالث . ويبدو أن يوحنا هذا قد عاد متنكراً إلى الجزيرة ليدير أمر الثورة ضد شارلس من آنجو ، وكان يوحنا على اتصال بميخائيل الثامن باليولوجوس بين أراغون وبيزنطة في العمل ضد العدو المشترك. ويبدو أنه قد تلقى مالا للتنسيق وسلاحاً من بطرس وميخائيل الثامن باليولوجوس للإعداد للثورة ضد شارلس من آنجو . ونحن نعلم أن سفيرا من أراغون يدعى تابرنر (Taberner) كان موجوداً في القسطنطينية في ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، كما أن ميخائيل الثامن قد أوفد جنوباً اسمه زكريا إلى بلاط أراغون . وكان يوحنا پروكيدا يمثل همزة الوصل بين أراغون وبيزنطة ومدبري الثورة في جزيرة صقلية .

في سنة ١٢٨٢ كان شارلس من آنجو قد انتهى من إعداد مائتي سفينة في ميناء مسينا لنقل جنود حملته المرتقبة ضد القسطنطينية . وفي نفس الوقت كان الذهب البيزنطي قد فعل فعله في نفوس الصقليين . والحق أن أهالي صقلية ، ومن بينهم عدد كبير من اليونانيين ، كانوا متعاطفين مع قضية ميخائيل الثامن

بالبولوغوس ضد شارلس من آنجو . ناهيك عن مشاعر الكراهية لدى الصقليين لأساليب الحكم الفرنسي الارهابي للجزيرة . ويحدثنا ميخائيل الثامن بالبولوغوس نفسه في « تاريخ حياته » أن أهالي صقلية كانوا يمتقنون جند الملك المتبربر (شارلس) ، وكانوا على استعداد لحمل السلاح لتحرير أنفسهم من قبضته ، « ولاني إن زعمت أنني كنت أداة للإرادة الإلهية في تحريرهم ، فلن أجا في الصواب في قولي » .

وهكذا فإن الخطط والمؤامرات كانت تدبر وتحاك في كل مكان في حوض البحر الأبيض المتوسط : في بالرمو ، وفي بلاط أراغون ، وفي نابلي ، وفي روما ، وفي آخايا ، وفي ابيروس ، وفي بيزنطة ، وفي البلاط البابوي . ولكن التاريخ والمؤرخين أحيانا ما يصادفون عاملا باطنا يتفجر على حين فجأة فيخيب ظنون المؤرخ والفائد ورجل السياسة جميعاً . وهذا هو ما حدث تماما في صقلية . فبينما كانت الخطط تجري على قدم وساق ، وكل يمتنى نفسه بالغد المأمول ، إذ بالبركان يتفجر في بالرمو ، في تلك الحادثة الخطيرة التي عرفها التاريخ باسم « أحداث صلوات العشية الصقلية » (Sicilian Vespers) :

ففي يوم الاثنين لقصص ١٢٨٢ م الموافق الثلاثين من مارس ، بينما كان القداس يتلى في كاتدرائية الروح القدس في بالرمو ، قام جندي فرنسي بمغازلة سخيفة لسيدة صقلية شابة ، في صحن الكاتدرائية . وفجأة ظهر زوج السيدة مزججراً وخنجره في يده ، وطعن الجندي الفرنسي طعنة قاتلة ألقته صريعا في بركة من دمائه في صحن بيت العبادة . وغلت المشاعر . وبينما كانت أجراس الكاتدرائية تدق مؤذنة بحلول وقت « صلاة العشية » (Vespers) كانت شوارع بالرمو تدوى بالهتاف « الموت للفرنسيين » ، وتمت ليلتها مذبحه رهيبة ضد الجنود الفرنسيين في بالرمو . وانتشرت أخبار المذبحة إلى بقية مدن الجزيرة ، فحدثت حذو بالرمو كل من كورليون وميسينا ، واندلعت الثورة وأعلنت المدن الثلاثة استقلالها .

ولم تقتصر المذبحة على الفرنسيين وإنما شملت جميع الأجانب الذين كانت لهمجتهم تفضح هويتهم الغريبة عن الجزيرة . وهجم الصقليون على الأديرة الفرنسية وقتلوا كل من وجدوه بداخلها . وحتى النسوة الصقليات اللاتي قيل أنهن قد حملن من فرنسيين قتلن هن أيضا أشنع قتلة .

وفي أثناء ذلك انعقد البرلمان في بالرمو وأعلن استقلال صقلية « الجمهورية » وانتصار الثورة الشعبية . ولكن البابا مارتن الرابع سارع بإصدار قرار بالحرمان ضد أهل الجزيرة جميعا ، ولكن الثوار ضربوا بالقرار والبابا عرض الحائط ، وفي خلال أسابيع قلائل تم طرد الفرنسيين من الجزيرة كلية^(٧٥) .

غير أن شارلس من أنجو ، الذي كان قد تلقى « بركات » البابا مارتن الرابع لحملته الصليبية ضد بيزنطة ، قد فاجأته كارثة بالرمو ، فراح يخطط لهجوم مضاد لتقليم أظافر الصقليين . فبادر الصقليون بإيفاد سفارة إلى بطرس الثالث ملك أراغون ، الذي كان يقود أسطوله على شواطئ الجزائر ، يطلبون منه العون ضد العدوان المرتقب من جانب الفرنسيين . وعرض الصقليون تاج جزيرتهم على زوجه كونستانس صاحبة الحق الشرعي فيه . ولم يتردد بطرس في قبول العرض ، وأبحر بأسطوله وألقت مراسيه في ميناء تروپاني Trapani في ٣٠ أغسطس ١٢٨٢ . ثم التقى الخصمان وانتصر بطرس على شارلس من أنجو . وفي الرابع من سبتمبر ١٢٨٢ توج بطرس الثالث ملكا على صقلية ، وبتوجيه تحطمت آمال شارلس من أنجو وحليفه البابا مارتن الرابع . لقد أنت سياسة ميخائيل الثامن أكلها .

وقد توفي شارلس من أنجو سنة ١٢٨٥ م .

(٧٥) ظلت أحداث صقلية اللسوية درسا مريراً يورق الكرامة الفرنسية ، ومن أطرف ما دار حول هذه الأحداث تلك المحادثة التي جرت بين الملك الفرنسي هنري الرابع وبين السفير الإسباني : هنري : إني لو غصبت فسوف أتناول إفطاري في ميلانو وغدا في نابلي . السفير الإسباني : مولاي ، ربما تفكرون جلاتكم أيضا في أن تتناولوا طعام العشاء وقت صلوات « المغرب » في صقلية .

« If I am provoked », said Henry IV, « I will breakfast at Milan, and dine at Naples. » « Your Majesty; replied the Spanish ambassador, » may perhaps arrive in Sicily for Vespers. » (See Hallam, Middle Ages, I, 517).

الفصل السادس

باليولوغوس ومجمع ليون ١٢٧٤م

اجتازت العلاقات بين الأمباطور والبطريك البيزنطيين تغيرات كبيرة بعد سقوط القسطنطينية في أيدي رجال الحملة الصليبية الرابعة . فلقد برزت في الأفق مشكلة دستورية ؛ ذلك أنه عقب الغزو الصليبي لبيزنطة سنة ١٢٠٤ هرب البطريك يوحنا كاثايروس إلى بلغاريا ، وبعد بعض تردد تنازل عن منصبه ، دون أن يعلن وجهة نظره في مسألة الخلافة للعرش البطريكي البيزنطي الذي اغتصبه كاهن لاتيني من البندقية هو موروسيني . ولما أن نجح تيودور لاسكارس في إقامة حكومة المنفى في نيقيا ، جمع من حوله عدداً من المطارنة ، ثم أوعز إليهم باختيار ميخائيل أوتوريانوس بطريكا . وتولى البطريك الجديد تنويع تيودور أمباطوراً . وهنا برز التساؤل : هل كان من حق تيودور أن يختار بطريكا قبل أن يتوج أمباطوراً ؟ كذلك تساءل البعض عن قانونية إقامة بطريك الدولة البيزنطية كلها في نيقيا دون سواها .

تتضح الإجابة عن هذا التساؤل على ضوء موقف حكومات المنفى الأخرى التي كانت تزعم لنفسها أيضاً الحق في تمثيل المشاعر البيزنطية بشكلها العام . أما عن حكومة طرابيزوند فقد رفضت الاعتراف بالبطريك والأمباطور النقيين على حد سواء ، ذلك أن سيد طرابيزوند قد توج هو أيضاً أمباطوراً على يد

كبير أساقفة دولته . وظلت طرابزون ترفض الاعتراف بطريرك نيقيا حتى عشية استرداد القسطنطينية (١٢٦٠) ورغم اعترافها به في النهاية إلا أن كبير مطارنتها تمسك بحقه في تنويج أباطرة طرابزون من آل كومنين (٧٦) . أما حكام ايروس من بيت أنجيلوس فلم يكتفوا برفض الاعتراف بإجراءات أميراطور نيقيا فحسب ، وإنما أقدم أحد أبنائهم بعد غزو سالونيك من أيدي الفرنجة على تنويج نفسه أميراطوراً لبيزنطة على يد كومانيانوس مطران أوخريدا ، اللاهوتي والقانوني الشهير . وقد أذاع كومانيانوس في تلك المناسبة أنه من حق الأمبراطور المتوج على يده أن يتصرف في منصب البطريركية البيزنطية كما يحلو له .

غير أن الرأي العام البيزنطي في سائر أرجاء الأمبراطورية المنهارة يوجه عام وفي ايروس بوجه خاص كان متعاطفاً مع أباطرة نيقيا ، الذين باتت الأعمال معقودة عليهم لتخليص البلاد من نير الصليبيين جميعاً . وقد عزز من هذا الموقف المشايخ ذلك النجاح المرموق الذي حققه سادة نيقيا على فرنجة بلاد اليونان بحد السيف .

وهكذا فإنه ابتداء من سنة ١٢٣٢ رضخت ايروس للأمر الواقع ، ووافقت سلاطتها على أن يتم تعيين رجال الدين لكنائس مملكتهم بواسطة بطريرك نيقيا . وفي سنة ١٢٣٨ قام بطريرك نيقيا بزيارة لايروس ، فاستقبل فيها استقبالا حافلا . وحتى سنة ١٢٦١ ظل بطريرك نيقيا يحكم كنائس ايروس وشبه جزيرة بلاد اليونان عن طريق نائب عنه (اكترارخ) هو مطران انسيرا الذي كانت أبروشيته قد وقعت في أيدي الأتراك السلاجقة .

من هذا يتضح أن نفوذ بطريرك نيقيا كان في واقع الأمر أكثر شمولا وهيبة من نفوذ أمبراطوار نيقيا نفسه على سائر الولايات البيزنطية . ومن هنا كان

(76) Mgr. Chrysanthos, E. Ecclesia tes Trapezantou, pp. 177-8.

تطور العلاقة بين الأمبراطور والبطريرك ، فلقد ظل الرئيس الديني راعيا على كل الكنائس ورجالها في نيقيا وبيروس وحتى في الأراضي الخاضعة للأتراك السلاجقة . هذا بينما لم تعترف حكومات البيروس وطرايينروند بسلطان الأمبراطور عليها . ويعني هذا أن البطريرك لا الأمبراطور هو الذي أمسى في ذلك الوقت يمثل الرمز لوحدة الأمبراطورية البيزنطية، الأمر الذي شكل انقلابا خطيرا في وضع السلطين الزمنية والدينية في بيزنطة .

وتتضح الخطورة ودلالاتها عندما أقدم أباطرة نيقيا على فتح باب المفاوضات مع البابوية في روما بهدف توحيد الكنيستين الرومانية والبيزنطية . فلقد سارع البطارقة إلى إعلان موافقتهم بأن أية تنازلات « مذهبية » لإرضاء الكنيسة اللاتينية سوف تؤدي إلى سحق عام بين أفراد الرعية الأرثوذكسية المقيمين خارج مملكة نيقيا ، بل وفي داخلها أيضا . ومن هنا سعى بطريرك نيقيا دواما على ألا تنجح المفاوضات بين الأمبراطور والبابا . وبمعنى آخر فإن مصالح المؤسسات البيزنطيتين باتت متعارضة أشد التعارض .

وكان أباطرة نيقيا على بينة من مغبة هذه الخطورة ، ولذا فإنهم كانوا يختارون للمنصب البطريركي أفراداً غلبت عليهم صفات الزهد والتقشف وعدم الاهتمام بالأمور الدنيوية . ويحدثنا نقفور بلميديس^(٧٦) أنه عندما أشرف البطريرك جرمانوس الثاني على الموت أوصى بأن يتخلفه صاحبنا بلميديس الفقيه . ولكن بلميديس كان صاحب تطلعات وميول علمانية ، ولذا فإن الأمبراطور يوحنا فاثانزيس عرض عليه منصب عمادة مدرسة القصر ، ولكنه رفض ذلك المنصب متعللاً بأنه يرغب في مكان « يؤمن له الحياة الروحية الهادئة » ، وهو يعني بطبيعة الحال العرش البطريركي الذي لم يعرضه عليه الأمبراطور . وعاد بلميديس إبداء رغبته في العرش البطريركي في عهد تلميذه الأمبراطور تيودور

(76) Nicephorus Blemmydes, Curriculum Vitae et Carmina (ed. A. Heisenberg), pp. 38-39.

الثاني . وطبقا لرواية بلميديس نفسه نعلم أن الأمبراطور قد عرض عليه ذلك المنصب بشرط أن يكون لصاحب الجلالة الحق في رئاسة المجامع الكنسية ، وأن يقبل البطريرك مشاركة بعض العلمانيين في تلك المجامع المتصلة بأمور العقيدة . ولكن بلميديس أفهم الأمبراطور أنه يقبل البطريركية بشرط واحد ، وهو أن يكون رائد الأمبراطور في الدرجة الأولى «تمجيد إسم الرب» . ويبدو أن هذه الملاحظة المكتبة قد أغضبت الأمبراطور فصاح في محدثه « دعنا الآن من مسألة تمجيد الرب ؟ ! » ويمضي بلميديس محدثا بأنه قد صدم عند سماعه لهذه العبارة وقرر رفض المنصب البطريركي^(٧٧) .

ومن الجائز جدا أن يكون الأمبراطور تيودور الثاني قد ناقش بالفعل مسألة شغل العرش البطريركي في نيقيا مع أستاذه القديم بلميديس ، ولكننا نعلم علم اليقين أنه لم يقع الاختيار على بلميديس لشغل ذلك المنصب الخطير ، وإنما كان من نصيب راهب زاهد هو أرسنيوس أيوتوريانوس من أبولونيا ، وهو الذي شغل المنصب البطريركي أيضا في عهد ميخائيل الثامن باليولوجوس .

لقد كان نفوذ البطريرك أشمل من نفوذ الأمبراطور ، ولذا حرص الأباطرة على اختيار أشخاص ينقون فيهم لشغل هذا المنصب الخطير . والواقع أن الحروب التي خاضها الأباطرة ضد أعداء يحيطون بالدولة من كل مكان قد أدت إلى انكماش نفوذ الأمبراطور . وقد كان لذلك أسوأ الانعكاسات على بلاط الأمبراطور ، فلقد قل دخل الخزانة فتقلصت مظاهر الاحتفالات ، وتدهورت تلك الحالة التي كانت تحف بجيش خليفة قسطنطين العظيم . وبأخبار مركز الأمبراطور في نظر أعدائه ورعاياه ازداد مركز البطريرك ، وباتت البطريركية هي الدعامة الوحيدة المتبقية للشد من أزر الأمبراطور بعد أن أصابه العجز (٥) .

(77) Ibid.

(*) See Runcimen, S. The Great Church in Captivity.

من واقع هذه التطورات التاريخية تولدت الصعوبات في وجه ميخائيل الثامن باليولوغوس في سياسته الدينية . وميخائيل صاحب سجل حافل من المغامرة والمغامرة السياسية ، وهو معتصب للعرش أيضا . ولذا فإن البيطريك أرسنيوس يرقب تحركاته في ريبة شديدة ، ووجد ميخائيل الثامن نفسه مضطرا إلى أن يقسم للبيطريك بأنه سيحافظ على حقوق شريكه في الحكم الأمبراطور الطفل يوحنا الرابع . ولكن سلوك ميخائيل الثامن كان مربيا في هذه المسألة بالذات ، فاستقال أرسنيوس من منصبه احتجاجا على ذلك في سنة ١٢٦٠ . ولكن البيطريك الجديد توفي بعد شهور قليلة من تنصيبه ، فطلب ميخائيل الثامن من أرسنيوس الرجوع إلى عرشه البيطريكي ، ووعده ثانية بأنه لن يمس حقوق الأمبراطور القاصر يوحنا الرابع .

ولما أن دخل ميخائيل الثامن القسطنطينية ظافرا ، وهدف به البيزنطيون جميعا على أنه المخلص من نير الفرنجة ، دخل في روعه أنه مبعوث العناية الربانية ، ومن ثم فإنه لم يجد حرجا في أن يبحث بالعهد الذي كان قد أقسمه للبيطريك ، وأزاح الأمبراطور الطفل من طريقه فألقى به في السجن وأمر بسل عينيه أيضا .

ولكن أرسنيوس ، رجل الله ، لم يتردد لحظة في أن ينزل قرار الحرمان على رأس ميخائيل الثامن وهو في قمة سطوته ومجده . وكان هذا العمل جريئا إلى أقصى الحدود ، فهو إجراء لم يحدث في تاريخ الدولة البيزنطية من قبل إلا مرة واحدة سنة ٩٠٦ ، عندما حُرم ليون الرابع بسبب زواجه للمرة الرابعة ، ولهذا فإن قرار أرسنيوس قد قوبل بالضيق حتى بين بعض المطارنة . واحتج ميخائيل الثامن على القرار دون جدوى ، فقرر الانتقام من أرسنيوس . وفي سنة ١٢٦٤ أصدر أمرا بالقبض على بعض موظفي الديوان البيطريكي ، ولكن أرسنيوس فرض حمايته على هؤلاء الموظفين ورفض تسليمهم للسلطات الأمبراطورية ، ثم أطلق لسانه بعبارات خشنة ضد الأمبراطور . ولكن الذي

حدث أن هؤلاء اللاجئين إلى حماية البطريرك قد فرغوا من تهوؤ أرسنيوس ، فسارعوا بتسليم أنفسهم للرحمة الإمبراطورية .

ثم جمع ميخائيل الثامن مجلساً حضره بطريركا الاسكندرية وانطاكية ، اللذان تصادف وجودهما في القسطنطينية آنذاك ، لمحاكمة أرسنيوس . ووجه المؤتمر إلى البطريرك عدة اتهامات ، منها أنه أسقط اسم الإمبراطور من الذكر في القداسات ، وأنه قد سمح للأمير تركي سلجوقي لاجئ بالتناول . ويروى أن الأمير التركي قد أبدى رغبته في الإدلاء بشهادته لتبرئة أرسنيوس من التهمة الأخيرة ، ولكن الإمبراطور رفض ذلك . ورفض أرسنيوس الظهور أمام المجلس لعدم قانونيته ، فأصدر المجمع قراراً بآدائه ، رغم معارضة بطريرك الاسكندرية .

وقام ميخائيل الثامن بخلع أرسنيوس من عرشه ثم أرسله إلى المنفى في أحد الأديرة النائية ، وهناك توفي الرجل بعدها بسبع سنين . واعتلى العرش البطريركي بعد ذلك جرمافوس الثالث مطران أدرنة ، وكان كرهاً لدى الشعب بسبب غروره وثقل ظله ، فقرر المجلس خلعهُ بعد عامين لأنه قد هجر كرسيه الأصيل في أدرنة . ثم اختير للبطريركية يوسف من جلّازيا ، الذي كان من رجالات القصر . ولقد وافق يوسف على إصدار قرار بالغفران لميخائيل الثامن بشرطين : أن يوقع الإمبراطور على مرسوم يخول لقرارات البطريرك نفس الصلاحيات التي تتمتع بها المراسيم الإمبراطورية ، وأن يظهر الإمبراطور الندم والتوبة علانية عن فعلته الشائنة ضد يوحنا الرابع الإمبراطور النديم والتوبة ميخائيل الثامن معاشاً سخياً ليوحنا الرابع « الضريد لأن » ، ثم ظهر على مرأى من الشعب في ثياب الندم ، عاري الرأس ، رافع اليدين إلى فوق ، راکماً أمام الرحمة البطريركية ، يطلب الصفح والغفران . ونال الإمبراطور غفراناً ، وخرج البطريرك الجديد منتصراً .

رغم ذلك الانتصار للبطريركية وتلك المذلة لشخص الإمبراطور ، إلا أن

تلاميذ مدرسة أرسنيوس ظلوا غاضبين . ذلك أن رهبان الصوامع وقدم الجبال لم يغفروا للأميراطور إثمهم ولا للبطريرك الجديد أنه مد يده ليد ملوثة ، وأنهموا الأخير بأنه ربيب القصر ومترف ولديه نزوع للآداب الوثنية . أما أرسنيوس فقد رأوا فيه البطل والشهيد الذي تصدى للأميراطور دفاعاً عن الحق دون خشية . وقد انضم تحت لواء هؤلاء الرهبان نفر غير قليل من كبار رجال الدين . الذين كانوا شديدي الإعجاب بالذكريات الخوالي لديرانية ستوديون العتيقة التي كانت دوما الصخرة التي تحطم عليها جيروت التاج . وعلى هذا فلن أتباع أرسنيوس — الأرسنيويين — لم يقبلوا موقف يوسف البطريرك الجديد ، واعتبروه مجرد أداة للقصر وسيد ميخائيل الثامن .

وقد قوبلت الأرسنيوية باضطهاد شديد في العاصمة ، فالتفتت الحركة مساراً تحنياً ، وشهدت البلاد المشاعين من أصحاب العباءات المهلهلة من قماش الجيش (ساكوفوري) يبشرون بضرورة مقاومة الإثم .

وكان من الممكن لميخائيل الثامن أن يقمع تلك الحركة لولا تلك المفاوضات التي كان قد فتحها مع البابوية والتي وافق خلالها على ضم كنيسة بيزنطة إلى الكنيسة الرومانية . وتفصيل ذلك أنه عندما ازداد خطر شارلس من آنجو ، ملك صقلية ، على الأراضي البيزنطية ، توسل ميخائيل الثامن إلى البابا جريجوري العاشر أن يستخدم نفوذه لكبح جماح شارلس . واشترط البابا مقابل القيام بهذا الدور أن يوافق ميخائيل الثامن على « رد جميع الامتيازات التي كانت للبابوية قبل وقوع الشقاق » الديني بين روما وبيزنطة سنة ١٠٥٤ م . وفي رسالته إلى الأميراطور أصر جريجوري العاشر على ضرورة « إزالة الشواثب (الزوان) والخلافات التي تشوب ما بين البيزنطيين واللاتين ^(٧٨) . وكان على ميخائيل

(78) Guiraud, reg. Greg. X, No. 194 : « ad premissa solide reboranda commodius et ad tractandam caritatis inter ipsos Latinos et Grecos, radicibus zizaniarum evulsis omnibusque discordiis... sedatis, inviolabiliter solidande tanto efficacius tanto favorabilibus intendemus. »

الثامن أن يؤكد صدق النية والرغبة في وحدة الكنيستين والاعتراف بسلطان البابا وإمرته أمام مندوبي البابا الذين أوفدوا إلى القسطنطينية^(٧٩).

وفي سنة ١٢٧٤ انعقد مؤتمر ليون الثاني ، وأرسل ميخائيل الثامن وقدراً رسمياً للمشاركة في أعمال هذا المؤتمر ولإعلان خضوع كنيسة بيزنطة لكنيسة روما والتزام البيزنطيين بحرفية قانون الإيمان الروماني . وكانت السفارة مؤلفة من جورج أكروبوليتس والبطريرك جرمانوس الثالث وثيوفانيس ومطران نيقيا . وفي المؤتمر سلم الوفد الرسائل الإمبراطورية التي احتوت الاعتراف بقداستكم (البابا) رأساً على سائر الكنائس ، وتفويض قداستكم في الفصل في أمور الكنيستين وفقاً لقوانين الكنيسة الرومانية^(٨٠) وبعد ذلك الإعلان التذليل بخمسة أيام أقيم قداس لاتيني حضره جميع أعضاء المجمع ، وتلوا قانون الإيمان باللغة اليونانية في صيغته وحرفيته الرومانية ، أي بإضافة عبارة الـ (Filioque) التي طالما رفضتها بيزنطة في عناد وإصرار شديدين . ويروى أنه عند تلاوة تلك الفقرة زمّ مطران نيقيا بشفتيه وعض عليها بشدة^(٨١).

ظل ميخائيل الثامن باليولوغوس مخلصاً لقرار الاتحاد الذي اتخذته مجمع

(79) Ibid. : « licet ab exordio indictionis huius (Concilii) ad magnificentiam tuam libertas et nuntios disposuerimus destinare, ipsorum fratrum nostrorum tamen consulto suspendimus missionem. »

(80) « Omnes autem prerogativas et privilegia, que antiquitus pertinebant tue sanctitati, que et ante scisma ipsi dedicata fuerunt, reddi huic omnibus precepimus, scilicet primum et summum pontificem et caput omnium ecclesiarum tuam sanctitatem esse apud omnes et nominari, et lites ecclesiasticas ad ipsam referri, ut utique accipiant hec directionem secundum ecclesiasticam et canonicam ordinationem et constitutionem. »

(81) C.J. Hefele, Histoire des Conciles, VI, pp. 153 ff.

ليون الثاني^(٨٢) طيلة حياته . ولكن ميخائيل لم يكن يملك أن يفرض هذا القرار على الكنيسة البيزنطية ، التي لم يكن يمثلها في ذلك المجمع من يرضى عنه الشعب أو رجال الدين البيزنطيون . فالمعروف أن جرمانوس الثالث كان قد عزل من منصبه كبطريرك ثم أعاده ميخائيل الثامن لعرش البطريركية ليستخدمه في المشاركة في مؤتمر ليون . والشخص الوحيد الذي ظل مخلصاً إلى جانب الأمبراطور لقرارات مجمع ليون هو السكرتير الأمبراطوري جورج أكربوليتا . ويبدو أنه كان متأثراً بشخصية صديقه الحميم الراهب الفرنسيسكاني يوحنا برامترون ، الذي كان من أصل يوناني والذي كان يتمتع باعجاب بالغ في دوائس القسطنطينية .

أما الشعب البيزنطي ورجال الدين جميعاً فقد كانوا ساخطين على مجمع ليون كل السخط . وبعد وفاة البابا جريجوري العاشر اعتلى العرش البابوي فرنسي متعصب هو مارتن الرابع الذي ألقى بكل ثقله مع شارلس من آنجو ضد ميخائيل الثامن ، متجاهلاً ما كان الأمبراطور البيزنطي قد نجح به من متاعب ومعارضة في بلاده بسبب مشاركته في مجمع ليون . ولذا فإن رجال الدين البيزنطيين عقدوا مجلساً في حماية حكام ابيروس وأنزلوا قراراً بالحرمان على كل من الأمبراطور وجرمانوس الثالث .

وهنا لا بد من التأكيد بأن التقليد عند البيزنطيين أن أي مجمع كنسي . حتى ولو تم انعقاده بواسطة الأمبراطور أو الأمبراطور والبابا ، لا يمكن اعتباره « مجمعاً مسكونياً » ملزماً إلا إذا شارك فيه البطارقة الأربعة للشرق سواء بأشخاصهم أو عن طريق مندوبيهم . ولذا فإنه كان مستحيلاً على ميخائيل الثامن أن يعبر شعبه على الاعتراف بالمجمع الذي عقد في ليون ، الذي رأى فيه البيزنطيون صورة جديدة لمجمع اخيسوس الثاني (القرن الخامس) ، فدمغوه

(٨٢) أنظر النص الكامل لمجمع ليون في (الملاحق) .

مثلما دمغوا الأول باسم « مجمع اللصوص » .

ولقد قرر الراهب برلعام (Barlaam) من كلابريا وجهة النظر البيزنطية تلك للبايوات في آقنيون سنة ١٣٣٩ بقوله : « إن المندوبين البيزنطيين الذين شاركوا في مجمع ليون لم يكونوا مفوضين من البطارقة الأربعة للمشرق ولا من قبل الشعب ، وإنما هم قد أتوا بأمر من شخص واحد هو ميخائيل الثامن الذي كان مصرا على الوحدة مع كنيسة روما بأي ثمن » (٨٣) .

(83) M.P.G., vol. 151, cols. 1332 ff.

الفصل السابع

نهاية قصة طويّلة

توفي ميخائيل الثامن باليولوجوس سنة ١٢٨٢ بعد أن أعاد للبيزنطيين عاصمتهم وكراً منهم ، وخلفه على العرش ابنه اندرونيكوس الثاني الذي لم يكن على شاكلة أبيه الراحل ؛ إذ كان مفتوناً بأفانين السحر والشعوذة ، كما أنه كان شديد التدين ولكأنه في هذا الخصوص واحد من الناسك . ولم تكن بيزنطة في حاجة إلى ناسك على عرش البوسفور لأن الحاجة كانت ماسة إلى جندي فذ . ولقد طالّت مدة حكم اندرونيكوس حتى بلغت ستة وأربعين عاماً ، شهدت خلالها بيزنطة أحداثاً خطيرة عجلت بسقوطها النهائي .

ففي سنة ١٣٠٣ إستعان اندرونيكوس الثاني بفرقة من الجند المرتزقة من القطلان (نسبة إلى قطلونيا) ، وهؤلاء كانوا قد عاونوا بيت أرغون الأسباني على بيت أنجو الفرنسي في السيطرة على صقلية . ولكن فردريك الأول ملك صقلية الأرغوني بات يخشى بأس هؤلاء الجند الغلاظ الطمع بعد أن قويت شوكتهم ، فبعث بهم لكي يساعدوا بيزنطة ضد أعدائها ، ولكي يتخلص من مشاكلهم في نفس الوقت (*) . وكان على رأس القطلان قائد مغامر اسمه

(*) See Miller, W. the Catalans et Athens; Rubioy Lluch. Los Catalanes en Grecia.

روجر دى فلور الذي وضع نفسه ورجاله في خدمة اندرونيكوس . ولكن
الامبراطور لم يحسن استغلال هذه القوة المرتزقة وإنما ضيع قيمتها في عمليات
عسكرية تافهة لا هدف من وراءها . وركن القطلان إلى الحمول فتأخرت عنهم
رواتبهم ولذلك قاموا بالتمرد على اندرونيكوس ، الذي دبر مؤامرة دنيئة تم
فيها اغتيال روجر . وجن جنون القطلان وانقضوا على الجيش البيزنطي وأوقعوا
به الهزيمة ، ثم راحوا يغربون على القرى والمدن البيزنطية لينهبوها . وظل
القطلان شوكة في جنب الدولة البيزنطية إلى أن تخلصت من عناهم سنة ١٣١٠
عندما دخلوا في خدمة دوق آتينا الفرنجي .

كذلك شهدت السني الأخيرة من حكم أندرونيكوس الثاني قيام حرب
أهلية بينه وبين حفيده وسميه اندرونيكوس الأصغر ، الذي تمرد ضد جده سنة
١٣٢١ طمعاً في أن يحكم امبراطوراً بعد أن توفي والده . وانتهى الصراع سنة
١٣٢٨ بانتصار الحفيد على الجدد واقتيد الأخير إلى الدير حيث ألبس المسوح
الديرانية (٥) . لقد جرت تلك الحرب الأهلية وبالأشدّ شديداً على الدولة البيزنطية ،
فأوهنت قوتها وصرفتها عن مواجهة خطر داهم جديد هو الزحف العثماني :
تجح الأتراك العثمانيون قبل وفاة زعيمهم عثمان بن أرطغرل في الاستيلاء على
مدينة بروسة البيزنطية سنة ١٣٢٦ ، وأضحت هذه المدينة العاصمة الآسيوية
للعثمانيين . ولما جاء السلطان أورخان بن عثمان إلى الحكم مد نفوذ العثمانيين
بعد أن أوقع الهزيمة بالجيش البيزنطي سنة ١٣٢٩ في موقعة بلكانون . وبعدها
بعام واحد سقطت نيقيا في أيدي العثمانيين ، وتغلغل النفوذ العثماني حتى
دانت لأورخان كل أراضي آسيا الصغرى فيما عدا مدينتي فوكيه وفيلادلفيا
وشريط ضيق على طول الساحل الشرقي للبوسفور .

توفي أندرونيكوس الثالث سنة ١٣٤١ فخلفه في الحكم ابنه يوحنا الخامس
تحت وصاية والدته آن من سافوى . وسرعان ما دب الخلاف بين آن وبين

(*) See Pachymeres, George, De Andronico Palaeologo (CSHB), ed. Bekker.

وزيها يوحنا كنتاكيوزينوس ، وراح كل طرف يستنجد بالعثمانيين للاحتفاظ بالسلطة . ونجح الوزير في كسب معونة السلطان أورخان بعد أن زوجه من ابنة ابنة لسه زفت إلى بلاط بورسه لتنضم هنالك إلى حريم السلطان . واعتلى كنتاكيوزينوس العرش البيزنطي شريكا في الحكم ليوحنا الخامس سنة ١٣٤٧ ، بعد أن زوج ابنة أخرى له اسمها هيلين ليوحنا . وتم تتويج كنتاكيوزينوس وزوجته ويوحنا وزوجته أباطرة في حفل واحد ، وبذلك صار يحكم بيزنطة ، ولأول مرة ، خمسة أباطرة في آن واحد وهم كنتاكيوزينوس ويوحنا الخامس وزوجتهما ثم الأمباطورة الأم آن من سافوى . إن هذا التكاليف على العرش هو الذي حفز القوى المجاورة في البلقان وعلى رأسها مملكة الصرب على التربص لبزنطة للاتقضاء عليها وسلخ أراضيها في البلقان . وقد حققت الصرب هذه الغايات في عهد ملكها القوي ستيفن دوشان (١٣٣٣) الذي نجح في الاستيلاء على ألبانيا وأبيروس وتساليا ، فصار بذلك سيدا على الأراضي الممتدة من البحر الأدرياتي إلى بحر إيجه . ثم تلقب دوشان بلقب « أمباطور رومانيا وسلافونيا وألبانيا » ، وأخذ برنو ببصره نحو تساج القسطنطينية ، ولكن الموت فاجأه سنة ١٣٥٥ ، وبموته أخذت قوة الصرب في التدهور والانهيار

في أثناء ذلك كانت الحرب الأهلية قد اندلعت من جديد في بيزنطة بين كنتاكيوزينوس ويوحنا الخامس ، واستنجد كل فريق هذه المرة بجمهورية جنوة والبندقية ، فاتحازت الأولى إلى جانب يوحنا الخامس والثانية إلى معسكر كنتاكيوزينوس . ودارت معركة بحرية بين الجمهوريتين الإيطاليتين بالقرب من العاصمة في سنة ١٣٥٢ ، وانتهت بانتصار جنوة على البندقية ، وبالتالي فاز يوحنا على كنتاكيوزينوس ، وأجبر الأخير على التخلي عن العرش وزج به في أحد الأديرة سنة ١٣٥٤ . وقد سجل لنا كنتاكيوزينوس تاريخ حياته وأحوال عصره أثناء إقامته في الحياة الديرانية .

استغل العثمانيون الفرصة وزحف سليمان الابن الأكبر للسلطان أورخان على موقع جاليبولي واستولى عليه وحصنه بحامية تركية تسهر على الحفاظ عليه ، وكانت جاليبولي أول أرض أوربية يستولي عليها العثمانيون (١٣٥٤) (٥) . توفي سليمان سنة ١٣٥٨ قبل وفاة والده أورخان بعام واحد وفي سنة ١٣٥٩ ، وآل العرش العثماني للسلطان مراد الأول الذي نجح في سنة ١٣٦١ في غزو مدينة أدرينوبل (أدرة) التي صارت العاصمة العثمانية في أوربا لمدة تقرب من القرن . إن هذا التوسع التركي على حساب الأراضي والمصالح البيزنطية لا يعود إلى مقدرة العثمانيين بقدر ما يرجع إلى تمزق البيزنطيين وتآمر حكامهم الواحد ضد الآخر إلى حد تشجيعهم للقوى المعادية لهم على غزو بعض الأراضي البيزنطية . وهكذا فإنه لا بد من تقرير حقيقة أن الأطماع الشخصية لدى أمراء بيت باليولوغوس المتأخرين قد قتلت فيهم أي احساس نبيل بالوطنية أو الصالح العام للدولة .

كان الاستيلاء على أدرينوبل مؤشرا ذا دلالة واضحة على مخطط عثماني ضد الممالك السلافية في البلقان وهي بلغاريا والصرب والبوسنية . وقد نجح العثمانيون بالتدريج في تطويق أراضي هذه الممالك الواحدة بعد الأخرى . وهكذا فإن بيزنطة باتت محاصرة من الشرق والغرب بالجيوش العثمانية ، واستفحل الخطر . راح يوحنا الخامس يتوسل إلى الغرب اللاتيني وعلى رأسه البابا ، طلباً في المساعدة لإتقاذ بيزنطة ، وفي سنة ١٣٦٩ قام بزيارة إلى روما وقابل البابا أوربان الخامس وأعلن خضوع الكنيسة البيزنطية لكنيسة روما وكذا أقر التزام بيزنطة بقانون الإيمان الكاثوليكي وبالطقوس الرومانية . ووعدته البابوية بالعون ، ولكن واقع الأمر يؤكد أن البابوية في ذلك الحين من القرن الرابع عشر لم تعد صاحبة نفوذ يذكر على بلدان غرب أوربا ، فلم تعد هنالك آذان

(*) See Gibbons, H.A. The Foundation of the Ottoman Empire; Koprulu, M.F. Les origines de l'Empire Ottoman; Langer, E.L., The Rise of the Ottoman Turks and its historical background (AHR-37).

تستعذب النخمة الصليبية القديمة . وهكذا فإن رحلة يوحنا الخامس إلى روما انتهت بخيبة أمل مريرة ، كان أهم نتائجها تعميق الخلاف بين الأباطور البيزنطي وشعبه بسبب إعلاناته المهينة على حساب التراث المسكوني للكنيسة البيزنطية . ولم يجد يوحنا الخامس بدءاً من أن يدخل طواعية تابعاً وفصلاً لسيادة السلطان العثماني ، بل إنه سلم له سالونكا أيضاً . وبلغت المذلة بالبيت البيزنطي حداً الأكبر عندما تمرد ابن يوحنا اسمه اندرونيكوس ، فسارع الأب يستنجد بالعثمانيين لدرء خطر الإين عليه . وكان الثمن باهظاً ، إذ وقع يوحنا الخامس على معاهدة مهينة سنة ١٣٨١ وافق بمقتضاها أن يدفع الجزية سنوياً للسلطان .

بعد أن أثبتت بيزنطة عجزها الكامل عن الاضطلاع بدورها في آسيا الع غرى والبلقان ، أقامت الدول السلافية عصبة فيما بينها للتصدي للخطر العثماني . وكان على رأس العصبة ملك البوسنية . ولكن العثمانيين بقيادة السلطان مراد زحفوا على الجيوش السلافونية وأنزلوا بها هزيمة ساحقة سنة ١٣٨٩ في موقعة كوسوفا ، وفيها سقط ملك الصرب صريعاً ومن حوله خيرة الجنود والضباط . على أن واحداً من نبلاء الصرب تظاهر بالانضمام إلى معسكر السلطان مراد ثم قام باغتياله ، انتقاماً لمقتل مليكه . ثم جاء السلطان بايزيد خلفاً لوالده مراد ، واضطر ملك الصرب الجديد على أن يزف شقيقته عروساً لبايزيد مع التعهد بدفع الجزية سنوياً والمساهمة في الخدمة العسكرية في صفوف جنود السلطان .

وسرعان ما حل بولاشيا وبلغاريا نفس المصير الذي حل بالصرب .

جاء رد الفعل هذه المرة من جانب سجموند ملك المجر تعاونه حملة صليبية فرنجية بقيادة جان دي نيفيرز الملقب « بالأسور » ، وريث دوقية برغنديا . ولكن السلطان بايزيد انقض على الصليبيين والماجياري وأوقع بهم هزيمة نكراء في موقعة نيكوبولس سنة ١٣٩٦ ، وفيها أبيدت قوة الحملة ولم

ينج من فرسان الفرنجة سوى أربعة وعشرون رجلاً ، فروا إلى الغرب ليقتصوا على ذويهم روايات خيالية عن شجاعة العثمانيين وقسوتهم .

توفي الأمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس سنة ١٣٩١ وخلفه على العرش ابنه مانويل الثاني ، الذي كان عليه أن يقود فرقة بيزنطية ليسبر بها وراء السلطان بايزيد في آسيا الصغرى ليساعده في الاستيلاء على آخر مدينة بيزنطية فيها ألا وهي فيلادلفيا ! وفي سنة ١٣٩٧ كان السلطان بايزيد قد نجح في ضم ابيروس وتساليا إلى أملاك الأمبراطورية العثمانية . ودقت نواقيس الخطر في مدينة أياصوفيا . وهنا اضطر مانويل الثاني إلى السفر إلى غرب أوروبا ليتوسل إلى الملوك والبابا لكي يساعده في محنة بيزنطة الكبرى (٥) . وفي أثناء غياب مانويل في الغرب قام بايزيد بضرب حصار حول القسطنطينية وكادت المدينة أن تسقط في يده ، لولا أن الأتباء قد جاءت عن زحف مغولي مدمر تحت قيادة الزعيم الجبار تيمورلنك . رفع بايزيد الحصار عن القسطنطينية وأعد العدة لملاقاة المغول ، ودارت معركة رهيبة بين العثمانيين والتتار (المغول) عند انقوره سنة ١٤٠٢ ، وانتصر تيمورلنك ووقع بايزيد أسيراً وظل في الأسر حتى مات في سنة ١٤٠٣ .

إن تيمورلنك هو الذي مدّ في عمر بيزنطة الخمسين عاماً الباقية على سقوطها النهائي ، لأنه لم يكن هنالك من يمنع بايزيد عن غزوها سنة ١٤٠٣ سواء في البلقان أو في الغرب الأوربي .

عندما عاد مانويل الثاني من رحلته الفاشلة في غرب أوروبا وجد سيداً جديداً على آسيا الكبرى والصغرى ، فاضطر إلى أن يدفع الجزية التي كانت تذهب إلى السلطان العثماني إلى تيمورلنك . على أن الأحداث في الشرق الأقصى اضطرت

(*) See Schlumberger, G. « Un Empereur de Byzance à Paris et à Londres. Revue des Deux Mondes XXX (1915).

تيمورلنك إلى أن يترك مسرح الأحداث في آسيا الصغرى ، ويعود إلى بلاده ، وقد هلك سنة ١٤٠٥ وهو يحاول غزو الصين .

كانت الضربة التي أنزلها تيمورلنك بالعثمانيين ضربة فادحة ، فلقد شلت فاعليتهم وأتاحت الفرصة للإمارات السلجوقية لكي تظهر من جديد ، كما وأن الفتنة قد دبت بين أبناء بايزيد الأربعة في صراع على الحكم . واستمر فعل ضربة تيمورلنك مئتين عشرين سنة إلى أن نجح محمد الأول في لم شمل امبراطورية آباءه . وفي إخضاع الإمارات السلجوقية من جديد سنة ١٤١٣ . وبعد وفاة السلطان محمد خلفه ابنه مراد الثاني في الحكم . وقد حدث أن حاول الأمبراطور البيزنطي مانويل الثاني أن يؤيد ابنًا لبازيد في مطالبته بالعرش العثماني ضد مراد . ولكن السلطان قتل غريمه ، ثم انقلب وضرب حصاراً حول القسطنطينية ليرهب مانويل . غير أن السلطان اضطر إلى رفع الحصار عن المدينة لأن واحداً من إخوته الأمراء قد شق عليه عصا الطاعة . ولما أن هدأت الأمور واستقرت للسلطان مراد ، قاد حملة نحو أوروبا سنة ١٤٢٤ ، واضطر مانويل إلى أن يقدم له الجزيرة مضاعفة إلى جانب التنازل له عن عدة مدن في تراقيا .

في سنة ١٤٢٥ اعتلى العرش البيزنطي ابن مانويل هو يوحنا السادس وهو أضعف أبناء بيت باليولوغوس . وقد شهد حكمه محاولة ثالثة للمصالحة بين الكنيستين البيزنطية والرومانية في مجيى فرارا سنة ١٤٣٨ وقلورنسا سنة ١٤٣٩ . وتم التوقيع في قلورنسا على وثيقة الاتحاد ، ولكن الشعب البيزنطي أظهر سخفًا شديدًا على يوحنا فاضطر إلى التراجع وإلى إعلان بطلان الوثائق التي وقع عليها في قلورنسا .

في أثناء ذلك اعتلى عرش الصرب ملك اسمه جورج الذي قرر أن يلتقي القفار في وجه السلطان العثماني . وسرت موجة الحماس بين شعوب الولاش واليوسنية ، ثم عقد جورج حلفاً مع سيجسموند ملك المجر بعد أن تنازل له عن

قلعة بلغراد الواقعة على حدود المملكتين . ولكن السلطان فاجيء القوى المتحالفة وضرب حصاراً حول سمندرية (١٤٣٨) . وفي أثناء الحصار توفي سيجموند فخلفه على العرش ألبرت النمساوي الذي حاول مقاومة الحصار ولكن دون جدوى . وسقطت المدينة وانتشر الوباء في معسكرات الطرفين ، وكان البرت من بين ضحايا الدوسنتاريا الوبائية .

في سنة ١٤٤٠ قدم نبلاء المجر تاج مملكتهم للعاهل البولندي لادزلاس ، وتمكن السلاف والماجياريون تحت قيادة لادزلاس من التصدي بشجاعة لقوات الانكشارية العثمانية ، كما أنهم أحرزوا بعض النجاح على مدار سنوات أربع متتالية إلى حد أنهم أوقفوا الهزيمة بالجيش العثماني عند أسوار هرمان شتات (Hermanstadt) سنة ١٤٤٢ وعند نيسا (Nissa) في نفس العام . واضطر السلطان مراد الثاني إلى توقيع معاهدة سلام مع أعدائه عرفت باسم معاهدة زغدين (Szegedin) في ١٢ يوليو ١٤٤٤ ، وبمؤداها رفع السلطان وصايته عن الصرب والبوسنية ، وسمح للولاشيا بالانضمام إلى مملكة المجر .

كانت هذه النتائج العسكرية محيبة لآمال السلطان مراد الثاني ، فاعتراه الهم وقرر التنارل من الحكم لابنه محمد ، واعتزل حياة السياسة إلى بلدة ماغنيزيا . وفسرت القوى البلقانية هذا الانزواء من جانب مراد الثاني على أنه علامة الأفول لنجم العثمانيين ، فتشجعت وقررت خرق معاهدة السلام . وأرسل البابا يوجين الرابع مندوبيه إلى لادزلاس لمباركة الحملة المرتقبة ضد العثمانيين . وعبر الجيش المجري نهر الدانوب إلى بلغاريا مبهما شطر ساحل البحر الأسود ثم استولى على مدينة فارنا . غير أن خرق المعاهدة مع العثمانيين بهذا الشكل كان غدرًا من جانب لادزلاس ، فثار السلطان مراد الثاني وتحرك من خلوته وجمع رجاله وسار إلى ميدان القتال . وفي ١٠ نوفمبر ١٤٤٤ التقى المعسكران عند فارنا ودارت معركة رهيبة هلك فيها الآلاف من جيش المجر وعلى رأسهم ملكهم لادزلاس ، وأذلت في ذات اليوم ممالك البوسنية والصرب أيضاً .

وبعد هذا النصر الرائع اعتزل مراد الثاني ثانية إلى ماغنيزيا . إلا أن القلاقل التي ظهرت في ألبانيا بعد ذلك بزعامه مجاهد اسمه جورج كاستريوت قد اضطرت السلطان مراد الثاني إلى الخروج عن عزلته مرة أخرى . كان جورج من أهل الجبل ، وكان عارفاً باستراتيجيات القتال عند العثمانيين ، فألف عصابات جبلية راحت تشن إغارات جسورة على معسكرات العثمانيين لمدة زادت على العشرين عاماً .

وفي أثناء هذا الصراع توفي السلطان مراد الثاني وخلفه ابنه محمد الثاني الذي لقبه التاريخ بلقب « الفاتح » . أمضى السلطان الجديد عام ١٤٥٢ في الإعداد لحصار القسطنطينية ، فشد قلعة على البوسفور ، واستعان بخبرة مهندسين أجانب في تصنيع المدافع الثقيلة لذلك أسوار القسطنطينية ، كما أنه جمع عدداً وافراً من الجنود وكميات هائلة من المؤن والذخيرة من مختلف أراضي الإمبراطورية التي كانت يترع على عرشها . وكان الجالس على عرش بيزنطة في ذلك الوقت قسطنطين الحادي عشر الذي خلف أخاه يوحنا السادس منذ ١٤٤٨ . وكان قسطنطين مدركاً لخطورة موقفه وللمحنة التي تنتظر بيزنطة ، فسارع بالاعتراف بقرارات مجمع فلورنسا الكنسي لكي يكسب عطف البابوية وقوى الغرب اللاتيني على قضية بلاده ، بل إنه احتفل بتلك المناسبة احتفالاً دينياً كبيراً في أياصوفيا . هذه السياسة الكنسية من جانب قسطنطين لم تؤد إلا إلى ازدياد سخط البيزنطيين عليه ، ولذا فإنهم اتخذوا موقفاً سلبياً ولم يرتفع البيزنطيون إلى مستوى الشعور بتحديات ذلك الظرف ولم يأخذوا بيد قسطنطينهم لمساعدتهم في انقاذهم من الهلاك والعار . وراح أهل المدينة يضيعون وقتهم وجهدهم في جدل عقيم حول الهرطقة والأرثوذكسية والكاثوليكية ، وهو نفس الجدل الذي طالما جر الكوارث على الدولة البيزنطية منذ مجيئها المسكوني الأول سنة ٣٢٥ .

وانتظر قسطنطين الحادي عشر آملاً أن يأتي العون من لدن الغرب اللاتيني والبابا ، ولكن أحداً لم يتحرك ، فقد كانت الحرب طاحنة بين فرنسا وإنجلترا : وكان فيليب دوق برغنديا يقاتل لتوسيع أملاكه في الأراضي

الواطئة ، وكانت ألمانيا منصرفة إلى معالجة مشكلاتها الداخلية المعقدة ؛ فلم يكن في مقدور الإمبراطور الروماني المقدس فردريك الثالث أن يسيطر حتى على مقاطعته التي ورثها عن آباءه . أما عن قوى البلقان فقد انهارت بعد مصرع لادزلاس ، واعتراها الرعب من العثمانيين بعد يوم فارنا .

واكتملت خطة محمد الثاني ، وبات مؤكدا لدى سفير البندقية في القسطنطينية « أن « رجل أوروبا المريض » ساقط لا محالة فخطب جمهوريته للعمل على ضم بيزنطة إليها بدلا من وقوعها في أيدي العثمانيين !! وتجمعت أساطيل البندقية وجنوة وأخذ المرتزقة القتلان على عاتقهم حماية أسوار القسطنطينية .

بدأ محمد الثاني حصاره للمدينة في ربيع ١٤٥٣ ، ونجح أسطول جنوة في صد الأسطول العثماني ، ولكن السلطان كان قد أعد عدته فركزت المدفعية قذائفها على الأسوار . وفي ٢٩ مايو ١٤٥٣ بعد صراع يائس نجح الانكشارية في اقتحام أسوار القسطنطينية من ثغرة فتحتها نيران المدفعية الثقيلة . ولقد قاتل قسطنطين الحادي عشر قتال الأبطال وسقط في ميدان المعركة حول الأسوار ، فشفرت بدمه اسمه واسم مؤسس المدينة في ذلك اليوم الرهيب . ولكن شعب العاصمة كان متبلداً ولكأنه غير واع لما يدور أمام أعينهم من أحداث جسام ، بسبب خلافهم مع قسطنطين حول مجمع فلورنسا . ولقد سمعت بالفعل أصوات بيزنطية في ذلك اليوم تقول « إنه الأخير لبيزنطة أن تحكمها العثمانيه الخضر من أن تدلها القبيحة البابوية » .

ودخل محمد الفاتح مدينة قسطنطين في موكب مهيب وطوى بسيفه وبمدفعه قصة طويلة من التاريخ (٥) . على أنه ينبغي علينا أن نقرر في ختام القول بأن الغرب اللاتيني هو الذي مهد لنهاية بيزنطة منذ بداية الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر ، ثم كتب البيزنطيون بأيديهم الفصل الأخير من مأساة سقوطهم .

(*) See Schlumberger, G. le siège, la prise et le sac de Constantinople par les Turcs en 1453.



Conc. Lugdunense II 1274.
Oecumenicum XIV (de unione Graecorum)
Constitutio de processione Spiritus Sancti (1)
(De summa Trinitate et fide catholica)

Fideli ac devota professione fatemur, quod Spiritus Sanctus aeternaliter ex Patre et Filio, non tanquam ex duobus principiis, sed tanquam ex uno principio, non duabus, spirationibus, sed unica spiratione procedit : hoc professus est hactenus, praedicavit et docuit, hoc firmiter tenet, praedicat, profitetur et docet sacrosancta Romana Ecclesia, mater omnium fidelium et magistra : hoc habet orthodoxorum Patrum atque Doctorum, Latinorum pariter et Graecorum incommutabilis et vera sententia. Sed quia nonnulli propter irrefragabilis praemissae veritatis ignorantiam in errores varios sunt prolapsi : Nos huiusmodi erroribus viam praeccludere cupientes, sacro approbante Concilio, damnamus et reprobamus, qui negare praesumpserint, aeternaliter Spiritum Sanctum ex Patre et Filio procedere : sive etiam temerario ausu asserere, quod Spiritus Sanctus ex Patre et Filio, tanquam ex duobus principiis, et tanquam ex uno, procedat.

(1) Mansi, Joann. Dominici, Sacrorum Conciliorum nova et amplissima collectio. Tomus I. Florentiae 1759 599 (postea Parisiis, Lipsiae). XXIV 81 B.

Professio fidei Michaelis Palaeologi (2)

Credimus sanctam Trinitatem, Patrem et Filium et Spiritum Sanctum, unum Deum omnipotentem totamque in Trinitate deitatem coessentialem et consubstantialem, coaeternam, et coomnipotentem, unius voluntatis, potestatis et maiestatis, creatorem omnium creaturarum, a quo omnia, in quo omnia, per quem omnia, que sunt in coelo et in terra, visibilia, invisibilia, corporalia et spiritualia. Credimus singulam quamque in Trinitate personam unum verum Deum, plenum et perfectum.

Credimus ipsum Filium Dei, Verbum Dei, aeternaliter natum de Patre, consubstantialem, coomnipotentem et aequalem per omnia Patri in divinitate, temporaliter natum de Spiritu Sancto et Maria semper virgine, cum anima rationali; duas habentem nativitates, unam ex Patre nativitatem aeternam, alteram ex matre temporalem : Deum verum et hominem verum, proprium in utraque natura atque perfectum, non adoptivum, nec phantasticum, sed unum et unicum Filium Dei, in duabus et ex duabus naturis, divina scilicet et humana, in unius personae singularitate, impassibilem et immortalem divinitate, sed in humanitate pro nobis et salute nostra passum vera carnis passione, mortuum et sepultum, et descendisse ad inferos, ac tertia die resurrexisse a mortuis vera carnis resurrectione : die quadagesima post resurrectionem cum carne, qua resurrexit, et anima ascendisse in coelum, et sedere ad dextram Dei Patris, inde venturum indicare vivos et mortuos, et redditurum unicuique secundum opera sua, sive bona fuerint sive mala.

Credimus et Spiritum Sanctum, plenum et perfectum verumque Deum ex Patre Filioque procedentem, coequalem et consubstantialem et coomnipotentem et coaeternum per omnia Patri et Filio. Credimus hanc sanctam Trinitatem non tres Deos, sed unicum Deum omnipotentem, aeternum et invisibilem et incommutabilem.

(2) Mansi, op. cit., XXIV, 70 A sq; Harduini, P. Ioannis, S. J., Conciliorum Collectio regia maxima (Lobbei et Cossartii) sive : Acta Conciliorum et Epistolae Decretales ac Constitutiones Summorum Pontificum. Parisiis 1715, VII, 694 C 599; Baronius, Caesaris S. R. E. Card., Annales Ecclesiastici, ed. Aug. Theiner, ad 1274 n. 19 (22, 329 a).

Credimus sanctam catholicam et apostolicam unam esse veram Ecclesiam, in qua unum datur sanctum baptismum et vera omnium remissio peccatorum. Credimus etiam veram resurrectionem huius carnis, quam nunc gestamus et vitam aeternam. Credimus etiam Novi et Veteris Testamenti, Legis, ac Prophetarum et Apostolorum, unum esse auctorem Deum ac Dominum omnipotentem. Haec est vera fides catholica, et hanc in supradictis articulis tenet et praedicat sacrosancta Romana Ecclesia. Sed propter diversos errores, a quibusdam ex ignorantia et tab aliis ex malitia introductos, dicit et praedicat, eos, qui post baptismum in peccata labuntur, non rebaptizandos, sed per veram poenitentiam suorum consequi veniam peccatorum. Quod si vere poenitentes in caritate decesserint, antequam dignis poenitentiae fructibus de commissis satisfecerint et omissis : eorum animas poenis purgatoris seu cathartici, sicut nobis frater Ioannes explanavit, post mortem purgari : et ad poenas huiusmodi relevandas prodesse eis fidelium vivorum suffragia, Missarum scilicet sacrificia, orationes et eleemosynas et alia pietatis officia, quae a fidelibus pro aliis fidelibus fieri consueverunt secundum Ecclesiae instituta. Illorum autem animas, qui post sacrum baptismum susceptum nullam omnino peccati maculam incurrerunt, illas etiam, quae post contractam peccati maculam, vel in suis manentes corporibus, vel eisdem exutae, prout superius dictum est, sunt purgatae, mox in coelum recipi. Illorum autem animas, qui in mortali peccato vel cum solo originali decedunt, mox in infernum descendere, poenis tamen disparibus puniendas. Eadem sacrosancta Ecclesia Romana firmiter credit et firmiter asseverat, quod nihilominus in die iudicii omnes homines ante tribunal Christi cum suis corporibus comparebunt, reddituri de propriis factis rationem.

Tenet etiam et docet eadem sancta Romana Ecclesia septem esse ecclesiastica sacramenta, unum scilicet baptismum, de quo dictum est supra; aliud est sacramentum confirmationis, quod per manuum impositionem episcopi conferunt, chrismando renatos; aliud est poenitentia, aliud sacramentum ordinis, aliud est matrimonium, aliud extrema unctio, quae secundum doctrinam beati Iacobi infirmantibus adhibetur. Sacramentum Eucharistiae ex azymo conficit eadem Romana Ecclesia, tenens et docens, quod in ipso sacramento panis vere transsubstantiatur in corpus et vinum in sanguinem Domini nostri Iesu Christi. De matrimonii vero

tenet, quod nec unus vir plures uxores simul, nec una mulier permittitur habere plures viros. Soluta vero legitimo matrimonio per mortem coniugum alterius, secundes et tertias deinde nuptias successive licitas esse dicit : si impedimentum canonicum aliud ex causa aliqua non obsistat.

Ipsa quoque sancta Romana Ecclesia summum et plenum principatum et principatum super universam Ecclesiam Catholicam obtinet: quem se ab ipso Domino in beato PETRO Apostolorum principe sive vertice, cuius Romanus Pontifex est successor, cum potestatis plenitudine recepisse veraciter et humiliter recognoscit. Et sicut prae ceteris tenetur fidei veritatem defendere : sic et si que de fide subortae fuerint quaestiones, suo debent iudicio definiti. Ad quam potest gravatus quilibet super negotiis ad ecclesiasticum forum pertinentibus appellare : et in omnibus causis ad examen ecclesiasticum spectantibus ad ipsius potestatem indicium recurri : et eidem omnes ecclesiae sunt subiectae, ipsarum praelati oboedientiam et reverentiam sibi dant. Ad hanc autem sic potestatis plenitudo consistit, quod ecclesias ceteras ad sollicitudinis partem admittit; quarum multas et patriarchales praecipue diversis privilegiis eadem Romana Ecclesia honoravit, sua tamen observata praerogativa tum in generalibus Conciliis, tum in aliquibus aliis semper salva.

أسرة باليولوغوس
١٢٦١ - ١٤٥٣ م

ميخائيل الثامن
١٢٦١ - ١٢٨٢

(زوجة ثانية ايريني من مونت فرات) اندرونيكوس الثاني (زوجة أولى أنا
من هنجاريا) ١٢٨٢ - ١٣٢٨

ميخائيل التاسع (زوجته : اكرنيا -
ماريا) ١٢٩٥ - ١٣٢٠

اندرونيكوس الثالث (زوجته أنا من
سافوي) ١٣٢٨ - ١٣٤١

يوحنا الخامس (زوجته هيلين ابنة يوحنا السادس)
١٣٤١ - ١٣٩١ (شاركه في الحكم
يوحنا السادس كانتاكوزينوس من
١٣٤١ - ١٣٥٤)

مانويل الثاني (زوجته هيلين المقدونية)
١٣٩١ - ١٤٢٥ اندرونيكوس الرابع
١٣٦٩ - ١٣٧٦

توماس دميريوس يوحنا الثامن قسطنطين الحادي عشر
١٤٢٥ - ١٤٤٨ ١٤٤٩ - ١٤٥٣
(السقوط النهائي للقسطنطينية)

الفرجة في بلاد اليونان

١ - أمراء آخايا

- ١ - ولیم دی شامیلیت ١٢٠٥ م
- ٢ - جیوفری الأول دی فلہاردوان ١٢٠٩ م
- ٣ - جیوفری الثاني دی فلہاردوان ١٢١٨ م
- ٤ - ولیم دی فلہاردوان ١٢٤٦ م
- ٥ - شارلس الأول من أنجو ١٢٧٨ م
- ٦ - شارلس الثاني من أنجو ١٢٨٥ م
- ٧ - ایزابیل دی فلہاردوان ١٢٨٩ م
- مع فلورنت من ہینوہ ١٢٨٩ م
- مع قلیب من سافوی ١٣٠١ م
- ٨ - فیلیب الأول من تارانتو ١٣٠٧ م
- ٩ - ماتیلدة من ہینوہ ١٣١٣ م
- مع لويس من برغنديا ١٣١٣ م
- ١٠ - یوحنا من جرافینا ١٣١٨ م

۱۱ —	کاترین من فالوا	۱۳۳۳ م
۱۲ —	روبرت من تارانتو	۱۳۴۶ م
۱۳ —	ماري دی بوربون	۱۳۶۴ م
۱۴ —	فیلیپ الثاني من تارانتو	۱۳۷۰ م
۱۵ —	جوانا من نابلي	۱۳۷۴ م
۱۶ —	أوتو من پرونزویک	۱۳۷۶ م
۱۷ —	فرسان القديس يوحنا	۱۳۷۷ — ۱۳۸۱ م
۱۸ —	جاک دی پوه	۱۳۸۱ م
۱۹ —	ماهيو دی کوکزل	۱۳۸۳ م
۲۰ —	بورديو دی سان سویران	۱۳۸۶ م
۲۱ —	ماريا زکريا	۱۴۰۲ م
۲۲ —	سنتریوني زکريا	۱۴۰۴ — ۱۴۳۲ م

٢ — أدواق أينا

- ١ — أوتون دى لاروش ١٢٠٥ م
- ٢ — جي الأول ١٢٢٥ م
- ٣ — يوحنا الأول ١٢٦٣ م
- ٤ — ولسم ١٢٨٠ م
- ٥ — جي الثاني ١٢٨٧ م
- ٦ — والتر دى بربين ١٣٠٩ م
- ٧ — روجر دى لاور (رئيس فرقة القطلان) ١٣١١ م
- ٨ — مانفريد ١٣١٢ م
- ٩ — ولسم ١٣١٧ م
- ١٠ — يوحنا من رنداتزو ١٣٣٨ م
- ١١ — فردريك من رنداتزو ١٣٤٨ م
- ١٢ — فردريك الثالث من صقلية ١٣٥٥ م
- ١٣ — بطرس من أرغونة ١٣٧٧ م
- ١٤ — يوحنا الأول من أرغونة ١٣٨٧ م
- ١٥ — نريو أكساجيولي ١٣٨٨ م
- ١٦ — البندقية ١٣٩٤ — ١٤٠٢ م
- ١٧ — انطونيو الأول ١٤٠٢ م

١٨ —	نيريو الثاني	١٤٣٥ م
١٩ —	انتونيو الثاني	١٤٣٩ م
٢٠ —	نيريو الثاني (للمرة الثانية)	١٤٤١ م
٢١ —	فرنسيسكو	١٤٥١ م
٢٢ —	فرانكو	١٤٥٥ — ١٤٥٦ م

٣ - المستعمرات التي خضعت للبنديّة

١ - مسودون من	١٢٠٦ - ١٥٠٠ م
٢ - كورون	١٢٠٦ - ١٥٠٠ م
٣ - ارجوس	١٣٨٨ - ١٤٦٣ م
٤ - نوبليسا	١٣٨٨ - ١٥٤٠ م
٥ - مونتفاسيا	١٤٦٤ - ١٥٤٠ م
٦ - ليبانزو	١٤٠٧ - ١٤٩٩ م
٧ - نيجروبونت	١٢٠٩ - ١٤٧٠ م
٨ - پتليون	١٣٢٣ - ١٤٧٠ م
٩ - ايجينا	١٤٥١ - ١٥٣٧ م
١٠ - تينوس	١٣٩٠ - ١٧١٥ م
١١ - ميكونوس	١٣٩٠ - ١٥٣٧ م
١٢ - شمالي سپوراديز	١٤٥٣ - ١٥٣٨ م
١٣ - كورفو	١٢٠٦ - ١٢١٤ م / ١٣٨٦ - ١٧٩٧ م
١٤ - كيغالونيا	١٤٨٣ - ١٤٨٥ م / ١٥٠٠ - ١٧٩٧ م
١٥ - زاتي	١٤٨٢ - ١٧٩٧ م
١٦ - سريجو	١٣٦٣ - ١٧٩٧ م
١٧ - ساننا مافرا	١٥٠٢ - ١٥٠٣ م

۱۸	— اثینا	»	۱۳۹۴ — ۱۴۰۲ م	
۱۹	— پاتراس	»	۱۴۰۸ — ۱۴۱۳ م	/ ۱۴۱۷ — ۱۴۱۹ م
۲۰	— ناکسوس	»	۱۴۹۴ — ۱۵۰۰ م	/ ۱۵۱۱ — ۱۵۱۷ م
۲۱	— اندروس	»	۱۴۳۷ — ۱۴۴۰ م	/ ۱۵۰۷ — ۱۵۱۴ م
۲۲	— پاروس	»	۱۵۱۸ — ۱۵۲۰ م	/ ۱۵۳۱ — ۱۵۳۶ م
۲۳	— $\frac{1}{4}$ آمورجوس	»	۱۳۷۰ — ۱۴۴۶ م	
۲۴	— ماینا	»	۱۴۶۷ — ۱۴۷۹ م	
۲۵	— قوستنزا	»	۱۴۷۰ م	

المراجع والمصادر

أولا باللغة العربية :

- ١ - القلقشندي ، أبو العباس محمد بن علي ، صبح الأعشى في صناعة
الإنشاء القاهرة ١٩٦٣ .
- ٢ - الهمداني ، رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، نقله إلى العربية
محمد صادق نشأت ، محمد موسى هندأوي ، فؤاد عبد المعطي
الصياد ، راجعه يحيى الخشاب . القاهرة ١٩٦٠ .

ثانيا بلغات أجنبية :

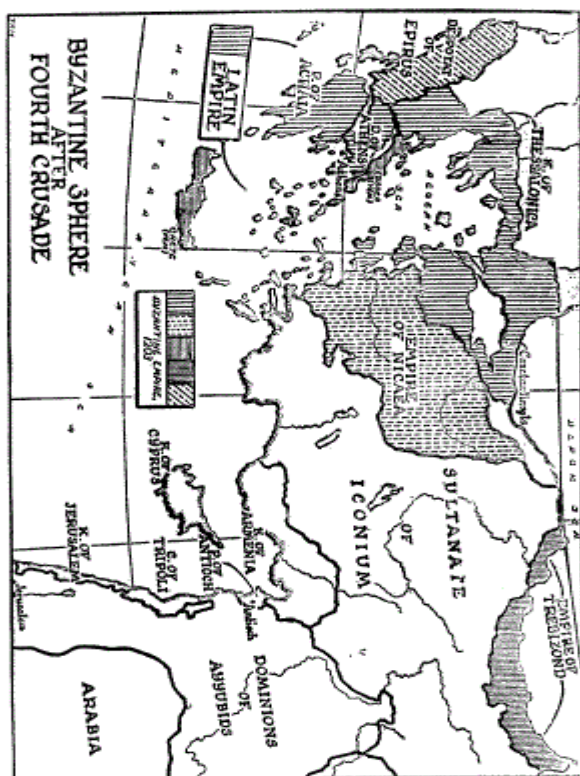
- Blemmydes, Nicephorus. Curriculum vitae et carmina. Ed. Heisen-
berg, A. Leipzig, 1896.
- Buchon, J.A. Nouvelles recherches sur la principauté française de
Morée et ses hautes baronnies fondées à la suite de la quatriè-
me croisade, pour servir de complément aux éclairissements
historiques, généalogiques et numismatiques sur la principauté
française de Morée. Paris, 1843-45.
- Canard, M. « Le Traité de 1281 entre Michel Paléologue et le
sultan Qalâ'ûn, Byzantion, X (1935). « Un Traité entre
Byzance et l'Égypte au XIIIe siècle et les relations diplomati-

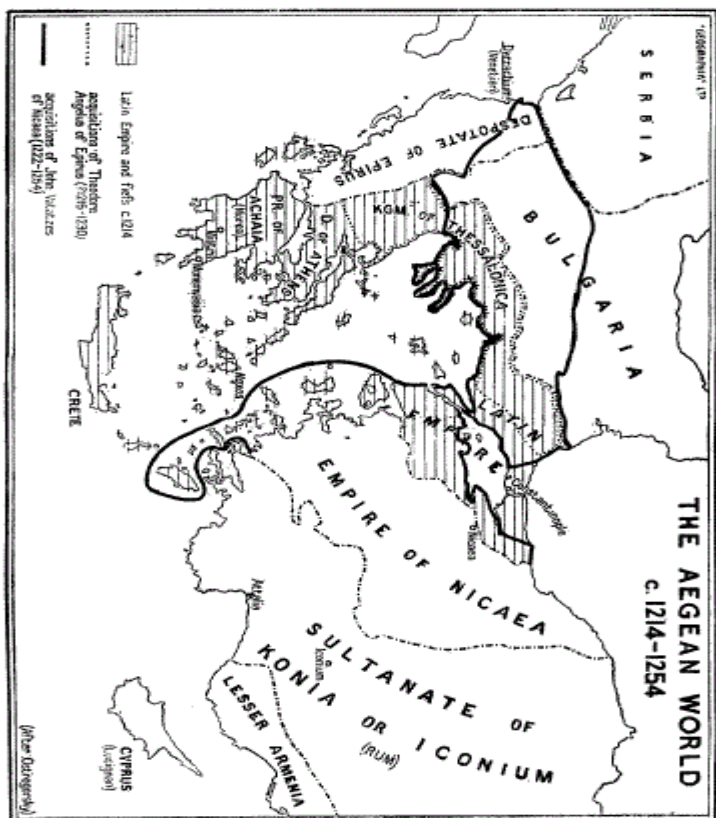
ques de Michel VIII Paléologue avec les sultans Mamlûks Baibars et Qalâ'ûn », Mélanges Gaudefroy-Demombynes, Cairo, 1937.

- Cantacuzene, John. *Historiae* (Bonn ed.).
- Carabellese, F. Carlo d'Angiò nei rapporti politici e commerciali con Venezia e l'Oriente. Bari, 1911.
- Chapman, C. Michel Paléologue restaurateur de l'empire byzantin (1261 - 1282). Paris, 1926.
- Chekrezi, C. Albania : Past and Present. New York, 1919.
- Dandolo, Enrico. *Cronaca Veneta*, apud Muratori, L. A. (*Rerum Italicarum Scriptores*.) Milan, 1728.
- Diehl, C. *Figures byzantines*. Paris 1906-8.
- Durricu, P. Les Archives angevines de Naples. Etudes sur les registres du roi Charles 1er. (Bibliothèque des écoles françaises d'Athènes et de Rome, XLVI.) Paris, 1886.
- Ebersolt, J. Orient et occident. Recherches sur les influences byzantines et orientales en France pendant les croisades. Paris, 1928-29.
- Florinsky, T.D. The Southern Slavs and Byzantium in the Second Quarter of the Fourteenth Century. Vols. I-II - St. Petersburg, 1882.
- Gibbons, H.A. The Foundation of the Ottoman Empire. Oxford, 1916.
- Gill, J. The Council of Florence. Cambridge, 1961.
- Gregoras, Nicéphorus. *Historia Byzantina*. Ed. Schopen, L. (*Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae*.) Bonn, 1829-35.
- Grousset, R. Histoire d'Asie. III. Le Monde mongol. Paris, 1922.
- Hefele, K. J. von. Histoire des conciles. Ed. Leclercq, C. Paris, 1907-ff.
- Heyd, W. Histoire du commerce du Levant au moyen âge, Leipzig, 1883. Reprint, 1936.

- Jirecek, C. Geschichte der Bulgaren. Prague, 1876.
- Jordan, E. Les Origines de la domination angevine en Italie, Paris, 1909.
- Juvaini, Ata-Malik. The History of the World Conqueror. (Translated from the Text of Mirza Muhammed Quazvini into English by John Andrew Boyle.)
- Koprulu, M.F. Les Origines de l'empire Ottoman. Paris, 1935.
- Lamansky, V.I. The Slavs in Asia Minor, Africa and Spain. St. Petersburg, 1859.
- Lane-Poole, S. A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
- Langer, E.L. & Blake, R.P. « The Rise of the Ottoman Turks and its Historical background. » American Historical Review, XXXVII (1932).
- Laurent, V. « La généralogie des premiers Paléologues, » Byzantion, VIII (1933).
 « Deux nouveaux manuscrits de l'histoire byzantine de Georges Pachymère », Byzantion, XI (1936).
 « Grégoire X (1271-76) et le projet d'une ligue antiturque, » Echos d'Orient, XXXVII (1938).
- Mansi, Joannes Dominicus. (Ed.) Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio. 31 vols. Florence and Venice, 1758-98.
- Migne, J.P. (Ed.) Patrologia Graeca. Paris, 1866.
- Miller, W. The Catalans at Athens. Rome, 1907. The Latins in the Levant. A History of Frankish Greece (1204-1566).
- Nikov, P. Tartaro-Bulgarian Relations in the Middle Ages. Sofia, 1921.
- Palaeologus, Michael. De vita sua opusculum, Greek text and Russian translation in Christanskoe Ctenie. St. Petersburg, 1885, II. French translation in Chapman, C. Michel Paléologue, restaurateur de l'Empire Byzantin (1261-1282). Paris, 1926.

- Pachymeres, George. De Michaelis Palaeologo, De Andronico Palaeologo. Ed. Bekker, I. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.) Bonn, 1835.
- Phrantzes, George. Annales. Ed. Bekker, I. (Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.) Bonn, 1839. Ed. Pappadopoulos, J.B.I. Leipzig, 1935.
- Rubio y Lluch, A. « Atenes en temps dels Catalans », Anuari de l'Institut d'Estudis Catalans, I (1907).
Los Catalanes en Grecia : Ultimos anos de su Dominacion : Caudros historicos. Madrid, 1927.
- Runciman, S. A History of the First Bulgarian Empire. London, 1930.
The Great Church in Captivity. Cambridge, 1968.
- Setton, K.M. Catalan Domination of Athens 1311-1388. Cambridge, Mass., 1948.
- Smith, D.M. A History of Medieval Sicily 800-1713. London, 1969.
- Schlumberger, G. Byzance et Croisades. Paris, 1927.
Le Siège, la prise et le sac de Constantinople par les Turcs en 1453. Paris, 1915.
- Uspensky, Th. I. « Byzantine Historians on the Mongols and Egyptian Mamluks », Vizantiysky Vremennik, XXIV (1923-26)
- Vasiliev, A.A. History of the Byzantine Empire. 2 vols. Wisconsin, 1952.
- Vernadsky, G. « The Golden Horde, Egypt and Byzantium in their Mutual Relations in the Reign of Michael Palaeologues. » « Annales de l'Institut Knodakov, I (1927).





THE BYZANTINE EMPIRE 1025-1402

